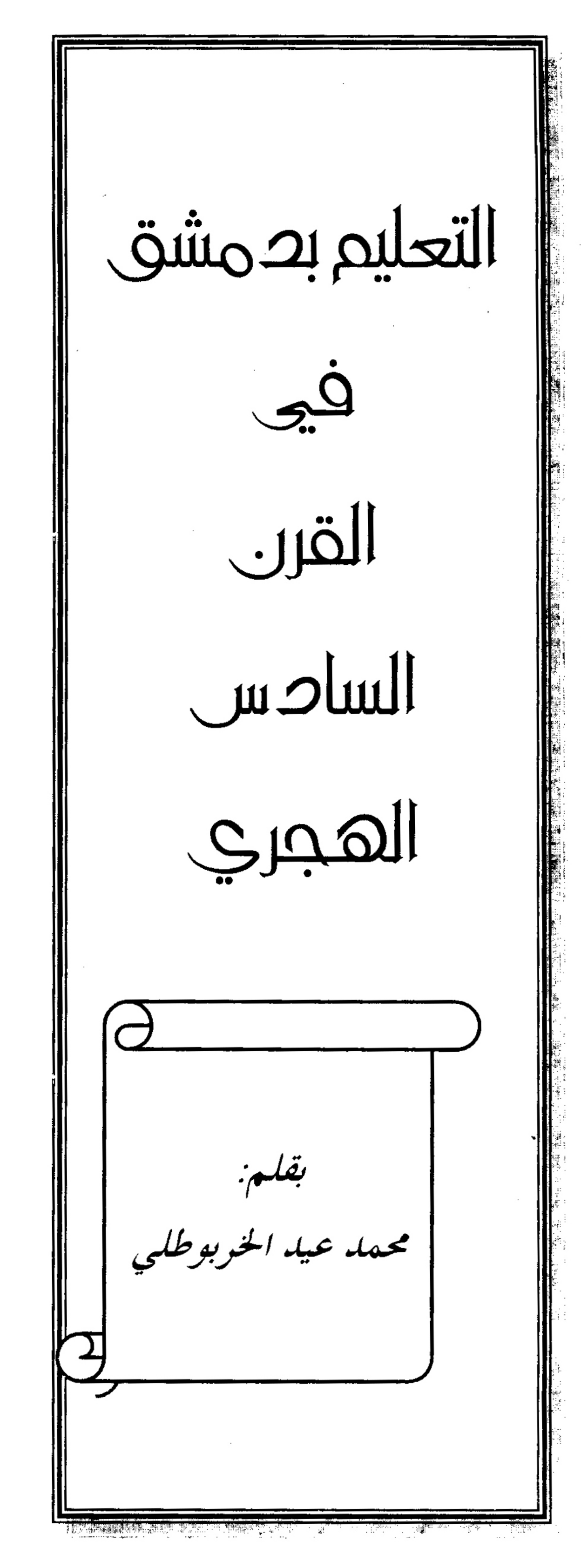


التعليم بدمشق في القرن السادس الهجري

بقلم: محمد عيد الخربوطلي

تعرضت دمشق وكل بلاد الشام سياسيا إلى الكثير من الصعوبات في القرن السادس الهجري، فتقاسمت حكمها قوى متعددة، وأسس الفرنجة أربع إمارات لهم في الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس، كذلك بدأ انحسار السيادة السلجوقية عن بلاد الشام، وظهرت وحدات سياسية صغيرة سميت بالأتابكيات، وأطلق على أصحابها اسم الأتابكة، فكانت الموصل وصاحبها عماد الدين زنكي، الذي أسس ابنه نور الدين ملكاً عريضاً في الشام في النصف الأول من القرن السادس الهجري، ثم جاء الأيوبيون فورثوا ما كان للزنكيين، وقد تكفلت الدولة الزنكية والأيوبية بمهمة الوقوف في وجه الصليبيين وتوحيد البلاد الشامية، كما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية نهائياً، مثلما قضى الزنكيون على السلاجقة وغيرهم من الدويلات الضعيفة.

لكن وإن كان الوضع السياسي في بلاد الشام على هذا الشكل، فإن الوضع التعليمي لم يكن كذلك، فقد تقدم التعليم في المنطقة على نطاق واسع، وتمثل بانتشار المدارس المتخصصة، ودور الحديث والخوانق والزوايا والمساجد، وكانت كلها تنشر العلم، فالمساجد لم تكن للصلاة فقط، بل اتخذت أمكنة للتعليم، وخاصة العلوم الدينية، حيث تلقى طلبة العلم فيها القرآن وعلومه والحديث وفنونه، وعلوم اللغة العربية وآدابها وما يتفرع عنها، كما كانت بيوت العلماء مقراً للتعليم.

وقد عبر ابن جبير في رحلته إلى دمشق سنة ٥٨٠هـ عن إعجابه بدمشق وبنهضتها العلمية، وفضلها على بلاد المشرق كلها، وحث طلاب العلم بالرحيل إليها لينهلوا من علومها ومعارفها، حيث يجدون فيها كل ما يعينهم على ذلك.

أسباب كثرة بناء المدارس في دمشق

لم يكن بناء المدارس أمرا طارئا أو حديثاً في القرن السادس الهجري، فقد وجدت المدارس من قبل ذلك، ولم تكن مقتصرة على دمشق وحدها، بل انتشر بناؤها في أرجاء بلاد الشام وكل العالم الإسلامي، لكن الملفت للنظر هو كثرة بناء المدارس في هذا القرن كثرة تلفت الأنظار، ومما لاشك فيه أن وراء ذلك أسباباً قوية منها:

١- شجع بنو زنكي فكرة تشييد المدارس في الشام لنشر المذهب السني عامة والحنفي خاصة، كما كان نور الدين فقيهاً وعالماً، يجمع العلماء في قلعة حلب إذا حصل خلاف بينهم، وينصحهم بعدم الفرقة، قال لهم مرة: "نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع وإظهار الدين، وهذا الخلاف لا يحسن ولا يليق"

وقد أثبت ذك العلامة أبو شامة في الروضتين، كما شجع الأيوبيون بناء المدارس لنفس الغرض، فقد كان بناء صلاح الدين للمدارس خطة موضوعة لهدم المذهب الفاطمي، وطريقة مرسومة للقضاء على الأفكار التي أتى بها الفاطميون.

٢- الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون، فقد وفر لهم نور الدين ومن بعده صلاح الدين سبل الرعاية والتشجيع، كما وفر لهم الرواتب العالية والمساكن، حتى يتفرغوا للعلم ونشره، وفتحا المدارس الكثيرة من أجلهم، وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة له، ليقوم بالتدريس فيها، فقد بنى نور الدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون في دمشق وفوض إليه التدريس فيها، وأن يوليها من شاء، كذلك بنى دار الحديث النورية للحافظ ابن عساكر، والمدرسة العادلية التي لم يتممها وقد كان يريدها لقطب الدين النيسابوري.

٣- همة كل من نور الدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن، والوقوف بحزم أمام الأعداء، فوثق الناس بحكامهم في الدفاع عن حياتهم، وانصرفوا للنهل من العلم، فقد ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة أن فكر نور الدين كان في إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد، حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم، والناس آمنون على أموالهم وحياتهم.

كذلك تبع هذه الحركة العلمية النشيطة عقد مجالس العلم، التي لا يذكر فيها إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، وكان الحضور كأنما على رؤوسهم الطير تعلوهم الهيبة والوقار، كما ذكر العلامة أبو شامة.

أركان الحركة العلمية

كان أركان الحركة العلمية في القرن السادس الهجري بين متسلمي الوظائف العلمية، ومتسلمي الوظائف الإدارية والعلمية.

أولاً: متسلمو الوظائف العلمية:

١- المدرسون: الذين يقفون على رأس هيئة التدريس، وكان يشترط في المدرس العلم التام بمادته وحسن ديانته، وورعه وتقواه، وقد يجمع المدرس بين مواد دينية مختلفة، لكنه يتخصص بتدريس مادة واحدة فقط.

ويتم تعيين المدرس من قبل واقف المدرسة، أو من قبل السلطان، وبعضهم يقف مدرسته على أسرة معينة وبشروط محددة.

ونال المدرس مكانة كبيرة في هذا العصر، فقد بالغ الزنكيون والأيوبيون في تقدير العلماء والأدباء، حتى أقبل الكثيرون على العلم للوصول إلى هذه المرتبة، حتى حسدهم الأمراء لعلو

منزلتهم بالرغم من مركزهم السياسي والعسكري والمادي القوي الذي حظيت به، ومع ذلك فقد وجدوا أن العلماء يمتازون عنهم، وأن مكانتهم عند أولي الأمر أكبر بكثير، وقد ذكر أبو شامة وابن كثير حادثة جرت في أيام نور الدين من هذا القبيل، فقد حسد الأمراء العالم قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي الذي حظي بمكانة عالية عند نور الدين، ونال منه الأمير وذكر ما ذكره في حقه، فما كان من نور الدين إلا أن أجابه قائلاً:

"يا هذا! إن كان ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليس لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت، مع وجود حسنة، عل أنني والله لا أصدق فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينك، فكف عنه"

ولمكانة العلماء لدى رجالات السياسة، فإنهم كانوا يستطيعون توجيه النقد اللاذع لهم، وخاصة إلى مجالسهم العلمية، فقد صرح الحافظ ابن عساكر الدمشقي بنقده لمجلس صلاح الدين الأيوبي، ومقارنته بمجلس نور الدين، فقد ذكر ابن شداد أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي حضر مجلس صلاح الدين لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لأحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الإختلاف من المحدثين، وقلة استماعهم، فقام وبقي مدة لا يحضر مجلسه، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه، هنا تكلم ابن عساكر بلسان الناصح الأمين والغيور على صلاح الدين: لقد نزهت نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لا يُستمع فيه إلى قائل، ولا يُرد جواب متكلم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه، أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

وكان وجود عالم في ذلك العصر، يدعو الحكام إلى بناء مدرسة خاصة له يدرس بها، لأن كل أستاذ يعتبر مدرسة بعينها، وفوق كل ذلك، كان المدرس موسعاً عليه في الرزق، وقد بلغت وقوف نور الدين سنة ٥٦٨هـ وحدها كل شهر تسعة آلاف دينار للقراء والعلماء فقط كما ذكر أبو شامة.

وقد اتخذ معظم المدرسين ألقابا دينية كتلك التي كان يتخذها الخلفاء والوزراء، وكان هذا اللقب يدل على مكانة المدرس العلمية، ويرى القلقشندي بأنه كان لهم في الزمن الأول لغالب أسمائهم ألقاب لا يتعدونها، كقولهم في محمد شمس الدين، وفي أحمد شهاب الدين، وفي أبي بكر وعبد الرحمن زين الدين، وفي عمر سراج الدين، وفي عثمان فخر الدين، وفي علي نور الدين، وفي يوسف جمال الدين، وغير ذلك.. ، ثم ترك أعيانهم ذلك لابتذاله بكثرة الاستعمال وعدلوا إلى ألقاب أخرى ابتدعوها على حسب أغراضهم، فقالوا في محمد بدر الدين وصدر الدين وصلاح الدين، ومن أشهر هذه الألقاب الإمام، وبعضهم أطلق عليه لقب إمام الأئمة، وما ذلك إلا لتمكنه من علمه فهو إمام لمن يتبعه.

- الحافظ: لقب من ألقاب المحدثين، وأصله من الحفظ دون النسيان، واختص به المحدثون لحاجتهم إلى كثرة الحفظ لمتون الحديث، وأسماء الرجال ونحو ذلك، وممن أطلق عليه هذا اللقب ابن عساكر.

- الشيخ: من ألقاب العلماء، وأصله في اللغة الطاعن في السن، ولقب به أهل العلم توقيراً لهم كما يوقر الكبير.

- المدقق: لقب يطلق على كبار علماء الدراسات العقلية.

- إمام المتكلمين: لقب يطلق على كبار علماء الدراسات العقلية

- الفقيه: من ألقاب العلماء، ويطلق على من صار الفقه له سجيه، وهو يقع على المجتهد دون المقلد.

- حجة العرب: من ألقاب النحاة واللغويين، ومن على شاكلتهم من أصحاب العلوم الأخرى.

- أمير المؤمنين: وهو لقب علمي يحمل مفهوماً غير مفهومه الديني والسياسي، وقد اختص به كبار المحدثين كالإمام أحمد بن حنبل، كما حظي به عدد قليل غيره.

ويوجد عدة ألقاب أخرى لعلماء الدين غير التي ذكرت، وقد فصلها القلقشندي في صبح الأعشى وغيره.

٢- المعيدون: يعتبر المعيد من أعضاء الهيئة التدريسية، كما يعتبر المدرس الثاني للطالب، فهو يعيد الدرس للطلاب، ويوضح لهم ما قرره الأستاذ، وكان تقرير المعيد الثاني المدروس يوافق تقرير أستاذه، كذلك كان يشرح المعيد الدرس للطلاب، ويعد المعيد مساعد المدرس الأيمن، وقد يكون المعيد معيداً في مدرسة ثم يصير مدرساً في مدرسة أخرى، فقد كان المجير الواسطي البغدادي (٥١٧ -٥٩٢هـ) معيداً للإمام أبي النجيب السهروردي في بغداد، ثم سار إلى دمشق فدرس بالمدرسة التي بنيت له وهي المدرسة الجاروخية، ثم عاد إلى بغداد فدرس في النظامية، وقد كان المعيد على درجة عالي من العلم.

٣- الطلاب: لم يشترط واقفوا المدارس سناً معينة لقبول الطالب بالمدرسة، لكن بعضهم اشترط في الطالب قابلية التعليم، وأن يكون ذا فطنة وذكاء لأن غالبية العلوم كانت تحفظ تحفيظاً، وكانوا يقسمون الطلاب بحسب مستوياتهم، وقد نصحوا الطالب بعدة أمور أهمها:

- تجنب كثرة الأكل والشرب لأنه يؤدي إلى الخمول والبلادة وقصور الذهن.

- أن يكون الطالب على طهارة كاملة.

- إذا استعار طالب كتاباً من زميل له فعليه أن يتفحصه جيداً عند أخذه ورده، وأن يحافظ عليه ولا ينسخ منه شيئاً إلا بإذنه.

ولكي يصل الطالب إلى مرحلة متقدمة في العلم، كان عليه أن لا يأخذ من مشاهير بلده فقط، بل كان إذا فرغ من سماعه على شيوخ بلده وسمع بشيخ يفوقهم شهرة في بلد آخر سافر إليه، وهو ما تعارف عليه العلماء بالرحلة في طلب العلم، وقد صنف العلماء عشرات الكتب في أمر الرحلة في طلب العلم.

وكان الطالب يتدرج في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيهاً منتهياً ويختص بعلم من العلوم التي يؤثرها، فينال بها إجازته العلمية، قد تكون هذه الإجازة بالتدريس والفتيا، والطالب الذي يسمح له بالفتوى يجب أن يكون على درجة علمية عالية، ولذلك فإنه يؤذن بالإفتاء إلى نبغاء الطلاب.

ثانياً - متسلمو الوظائف الإدارية والعلمية:

١- الوظائف الإدارية:

وهي الناظر والشاهد والمشارف والصدر.

- الناظر: كان لكل مدرسة ناظر ينظر في أوقافها وفي أمورها عامة، بمرتبة مدير عام لها، وهو الذي يؤجر عقاراتها ويشتري لها لوازمها، ويرمم ما تحتاجه، ويصرف للموظفين فيها رواتبهم، وكان يشترط بالناظر الأمانة والكفاية والعدالة وغير ذلك، وقد يجمع المدرس التدريس مع وظيفة النظر في أوقاف المدرسة، فقد درس جمال الدين بن سيما المعروف بجمال الإسلام بالمدرسة الأمينية كما نظر في أوقافها.

- الشاهد: ويلحق بالناظر وظيفة الشاهد، وعادة يكون في المدرسة شاهد أو أكثر، ويعتبر الشاهد كالمراقب للناظر أو نائبه، وهو الذي يضع شهادته على صكوك عقود البيع والشراء والإيجار.

- المشارف: وهو الذي يشرف على أمور المدرسة كالنظافة والخدمة.

- الصدر: وهو الذي يجلب للمدرسة الكثير من أهل الطلب والعلم.

٢- الوظائف العملية:

كان للمدرسة مؤذن وقيم يقوم بالآذان في المدرسة وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بالأمور الدينية كالإمامة والخطابة وقراءة القرآن، ونظر خزائن الكتب، وقد بين ذلك النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس، مثلاً عن ذلك في حديثه عن وقف المدرسة الشامية الجوانية بدمشق.

ثقافة القرن السادس الهجري السائدة

إن أبرز سمات الثقافة في هذا العصر الاهتمام بالثقافة الدينية، من علوم القرآن الكريم، والحديث الشريف، والفقه الإسلامي، وإلى جانبها علوم اللغة العربية، والعلوم التاريخية والاجتماعية، وعلوم الطب والعقاقير، وبعض العلوم الأخرى كالرياضيات والهندسة.

١- علوم الدين: اهتم الزنكيون والأيوبيون بالعلوم الدينية اهتماماً كبيراً، فاحتلت الحيز الأكبر لثقافة هذا العصر وهي:

- القرآن الكريم من تفسير وعلوم وقراءات: اهتم العلماء اهتماماً كبيراً بعلوم القرآن من تفسير وغير ذلك، لحاجتهم إلى هذه المواد من أجل دراسة الفقه والحديث، وصنف بعضهم الكتب في التفسير مثل سليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧هـ، فقد صنف مجلداً ضخماً في تفسير القرآن، وكذلك صنف عز الدين بن عبد السلام التفسير المجاز في القرآن، وينبغي على المفسر أن يكون عارفاً ومدركاً لمعاني القرآن وأسباب نزوله، ومميزاً بين الناسخ والمنسوخ، ويعرف كيف يستخرج الأحكام منه، كما يكون متقناً لعلوم اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والقراءات، مستعيناً بعلم أصول الفقه وعلم الحديث، كما فصل ذلك ابن الأكفاني في كتابه إرشاد القاصد، والقاضي البيضاوي في تعريفات العلوم.

ويشترط في مدرس علم القراءات أن يكون حافظاً للقرآن الكريم، وطرق قراءته السبع أو العشر، وأن يكون متقناً للنحو وقواعد اللغة، ويعرف مدرس القراءات باسم المقرئ كما ذكر القلقشندي في صبح الأعشى.

- الحديث الشريف: احتل الحديث الشريف المكان الأول في ثقافة القرن السادس الهجري، فكان العالم في هذا العصر متقناً للحديث والفقه، ولم يكن يوجد عالم إلا وهو عارف متقن لهذين العلمين، ويجب أن يكون مدرس الحديث عارفاً للناسخ من المنسوخ، ومتقناً لأنواع الرواية وأحكامها، وشروط الرواية، وعالماً في اللغة والنحو.

وكان علماء الحديث في دمشق غالباً ما يدرسون كتب الحديث المصنفة المشهورة لصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي، ومسند أحمد وغيرها.

ومن أشهر من اشتغل بعلم الحديث في هذا القرن الحافظ ابن عساكر هبة الله علي، وابن الصلاح، وابن أبي عصرون.

- علم الفقه: وهو علم أحكام التكاليف الشرعية العملية كالعبادات والمعاملات والعادات، وكان يغلب في دمشق تدريس فقه الإمام الشافعي، ويليه فقه الإمام أبي حنيفة، ويندر التدريس بالفقه المالكي والحنبلي، والباحث في كتاب الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي يجد تفصيل هذا الأمر بدقة عالية.

٢- علوم اللغة العربية:

وكانت تأتي في الدرجة الثانية، وهي إما تدرس لذاتها أو باعتبارها علوماً مساعدة لفهم العلوم

الدينية، فالنحو والبلاغة من المواد الثقافية الهامة والضرورية لدراسة الفقه، وهي أداة العلم، فالفقيه لا يكون فقيهاً والمفسر لا يكون مفسراً وعالم الأصول لا يكون أصولياً ما لم يهتم ويتقن اللغة العربية وعلومها.

٣- العلوم الاجتماعية والتاريخية:

يعتبر علم التاريخ من المواد الدراسية المهمة بسبب الظروف السياسية المعاصرة للقرن السادس الهجري، وكذلك تشجيع كل من نور الدين وصلاح الدين لكتابة التاريخ، وكان يدرس التاريخ في المدارس والمساجد، فالعلامة أبو شامة كان له درس عام في التاريخ يلقيه في الجامع الأموي.

ويعتبر التاريخ مادة ثقافية كما عدوه أحد العلوم الرئيسية التي لا بد لكل طالب علم من الإطلاع عليه.

ومن مصنفي التاريخ في ذلك القرن ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ، فقد صنف كتابه الكامل في التاريخ، كذلك صنف ابن أبي طي المتوفى سنة ٦٣٠هـ، وكلاهما كتباً في التاريخ العام، أما في التاريخ الخاص فقد صنف العماد الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ كتابين، أحدهما الفتح القسي في الفتح القدسي، والآخر البرق الشامي، وصنف ابن شداد الروضتين في أخبار الدولتين، كذلك عرفت كتب التراجم والطبقات، وعلى رأس هذه الكتب تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر المتوفى ٥٧١هـ.

أما العلوم الاجتماعية فقد عرف منها علم الفلك الذي برز فيه جملة من العلماء وصارت مؤلفاتهم مرجعاً مهماً في هذا العلم، والجغرافيا العلم الذي اهتم بالبلدان كثيراً، وكان هذان العلمان يدرسان في المدارس وأحياناً في المساجد.

٤- علوم الطب:

كانت الحاجة إلى الطب ماسة جداً في هذا العصر كما كان الحال قبله، وكان في دمشق في هذا العصر البيمارستان النوري الذي كان موقوفاً على الفقراء والمساكين، بما في ذلك العلاج والدواء، ومع ذلك كانت الأدوية التي يعز وجودها لا تمنع عن الأغنياء، وقد أكد ذلك ابن جبير في رحلته ومحمد كرد علي في خططه للشام.

وقد عرفت دمشق في هذا العصر مدارس الطب الخاصة وكانت أشهرها المدرسة الدخوارية التي أوقفها مهذب الدين الدخوار (٥٦٥ - ٦٢٨هـ) مع مكتبته الضخمة وكانت في سوق الصاغة القديمة، لكنها نهبت كغيرها من المدارس الأخرى وضمت إلى الدور السكنية، ثم تحولت إلى محلات ومخازن للتجارة.

وقد عرف أطباء كبار أمثال ابن الدخوار وابن ابي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ، وابن النقاش المتوفى سنة ٥٤٥هـ، وابن المطران المتوفى سنة ٥٧٨هـ، وعمر بن علي البذوخ المتوفى سنة ٥٧٦هـ، وغيرهم كثير وقد ترجم حياتهم وذكر أخبارهم ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

٥- علم العقاقير:

وهو علم يستخدم في الحرب والسلم، فقد استخدم للمعالجة وفي قتال الأعداء، وعرف ابن عريف النحاسين الذي كان مولعاً بجمع آلات الزراقين وتحصيل عقاقيرهم، وقد اتصل بصلاح الدين خلال حصاره لمدينة عكا سنة ٥٧٦هـ، وطبخ بعض الأدوية ورمى بها أحد البراج فاشتعل من ساعته، وهكذا فعل حتى أحرق الأبراج كلها.

٦- علم الهندسة:

كثر البارعون في هذا العلم، وكان على رأسهم اللبودي الذي أنشأ مدرسة سماها دار الهندسة، كذلك عرف عبد الكريم الحارثي المهندس الدمشقي المتوفى سنة ٥٩٩هـ، وكان ممن أصلح ساعة الجامع الأموي، كذلك صمم أبواب البيمارستان النوري بهندسة رائعة رائقة.

٧- العلوم العقلية والفلسفية:

التي لم يكتب لها الإنتشار بسبب كره الأيوبيين لها، وكان كل من يتعرض للفلسفة والمنطق وعلم الكلام ينفى أو يعزل عن التدريس، ومع كل هـذه القيود عليه لم يخل هذا العصر منها، حيث انعـزل الفلاسفة في بيوتهم وصنفوا آثارهم في الكتمـان، وأطلعوا عليها الخاصة من أصدقائهم خوفاً علـى حياتهم.

هذه العلوم الفلسفية التي كانت الدولة الفاطمية ميالة إليها لحاجتها في نشـر عقيـدتها الدينيـة، وبالمقابل كان أهل السنة يكرهونها لكرههم لهـم، فقد جاء في النجوم الزاهرة أن صلاح الدين كـان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعانـد الشريعة، لذلك كانت الدولة الأيوبيـة عنيفـة فـي معاملة الفلاسفة، لا تتهاون في تعقبهم ولا تتساهل في قتلهم وإبادتهم، ولا تقبـل مـنهم جـدلاً، ولا ترضى منهم عملاً، ومن الأمثلة على ذلـك فتـوى ابن الصلاح الشهرزوري المتوفى سنة ٦٤٣هـــ، بعد أن شن حرباً ضارية ضد هذه العلـوم وأهلهـا حيث قال: "إن الفلسفة أسُّ السفه والإنحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيـغ والزندقـة، ومـن تفلسف عميت بصيرته عـن محاسـن الشـريعة المطهرة، المؤيدة بالحجج والبراهين الباهرة"، وما هذه الفتوى إلا تعبيراً عن الرأي السائد في البيئات السنية في مناطق واسعة من العالم الإسلامي.

نظرة الإسلام إلى الفلسفة

الفلسفة في أصلها اليوناني تقابـل الحكمـة أو البحث عن الحقيقة، فالحكمة في الأصـل معرفـة الأشياء حقائقها، بأسبابها ونتائجها، والحكمة فـي الواقع الوصول إلى الغاية، إصابة الهدف في القول والفعل، وقد قال الله تعـالى ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقـــرة: ٢٦٩].

وورد في الحديث الشريف الذي رواه ابن ماجه في سننه ((الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها)).

والفلسفة عند الفارابي إيثار الحكمة، وعند ابن خلدون القاعدة التي يهتدي بها العقل إلى التمييـز بين الحق والباطل، ويسمي هذه القاعدة (المنطق) وثمرته شحذ الذهن في ترتيب الأدلة لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين.

والفلسفة على العموم: (علم يهدف إلى اكتشاف قوانين العقل المنظمة لنشاطه توصلاً إلى المعرفـة الصحيحة).

ومع كل ذلك لم يسمح لأهل العلم فـي دمشـق وبلاد الشام في القرن السـادس الهجـري بـتعلم الفلسفة والمنطق، لسبب كره الأيوبيين للفاطميين، وكره أهل دمشق لهم لماذا لما ذاقوه في عهـدهم من ظلم وعنت.

كذلك كان حال العلوم التجريبية كالكيمياء فلـم يسمح تدريسها أو العمل بها في المدارس، وكـان نصيب من يعمل بها أو يشجع ويساعد عليها العزل عن التدريس.

كل هذه العلوم كانت تدرس في المـدارس فـي الدرجة الأولى، ثم بالمساجد والخوانـق والـربط، وفي بيوت العلماء، خاصة أن المدارس كثرت فـي مدينـة دمشـق فـي عصـر الـدولتين النوريـة والصلاحية بشكل كبير.

من كل ما سبق نسـتنتج أن القـرن السـادس الهجري كان قرن العلم والتعليم بحق فـي دمشـق والبلاد الشامية، فقد نبغ فيه فئة كبيرة من العلماء المختصين في مختلف العلوم والفنون عدا العلـوم العقلية، التي لم يشجع القـائمون بـالأمر عليهـا، ويمكن القول أن العلوم التي أخذت حظها وسيطرت في هذا العصر هي العلوم الدينية من قرآن وحديث وفقه، يليها علوم اللغة العربية وآدابها، ثم العلـوم التاريخية.



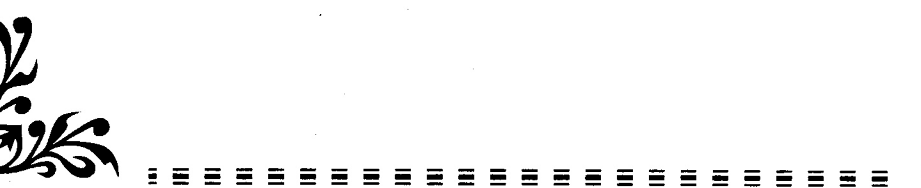

فارس البحر..

شعر الدكتور: عمر النص

لا نَجْــــمَ يُحَـــدِّقُ.. لا أَضْــــواءْ
لا ظِــــلَّ يُهــــاجِرُ في الظّلْمـــاءْ
اللّيلـــــةُ ســــاجِيَةٌ غَمّـــاءْ
والقريــــةُ تحلــــمُ في إعيــــاءْ
بـــــالبحرِ.. بأشـــــرِعَةٍ بيضـــاءْ
بمــــوانِئَ لَـــيسَ لهـــا أسمـــاءْ
بِبُـــروق تَجْلـــدُ صَـــدْرَ المـــاءْ
بالفــــارِسِ يُقْبِـــلُ في ضَوْضــــاءْ
يتوثَّـــبُ في غَـــبَشِ المينـــاءْ
ويَجـــيءُ بلؤلُـــؤَةٍ زَرْقـــاءْ
بِســنابلَ مِـــنْ ذهـــبٍ وضّـــاءْ
بمفـــاتِحِ مملكـــةٍ عَـــذْراءْ
بأغـــانٍ عَـــنْ سَـــنَةٍ خَضْـــراءْ
تتململُ في رَحِـــمِ الصَّـــحْراءْ

-٢-

واصـــطَكّتْ نافِـــذَةٌ سَـــوْداءْ
وتثـــاءَبَ ضَـــوْءٌ في الظّلْمـــاءْ
فأفـــاقَ الطفـــلُ علـــى أصْـــداءْ
فــــرأى أعلامـــاً فـــوقَ المـــاءْ
والفـــارِسَ يُقْبِـــلُ في ضَوْضـــاءْ
يَخْتـــالُ علـــى فَـــرَسٍ دَهْمـــاءْ
ويُعـــانِقُ نهـــراً مِـــنْ أشـــذاءْ
ورآهُ يَمُـــدُّ يَـــداً بَيْضـــاءْ
ويَـــدُقُّ علـــى جُـــدُرٍ صَـــمّاءْ
ويَصـــيحُ: أمـــا أتَـــتِ الأنْبـــاءْ







إنِّـــــي أبصــــرْتُ علــــى الــــدأماءْ
أبْراجـــــاً شـــيدَتْ مِـــن لألاءْ
وجَزائـــرَ زاهيَـــةً شَـــجْراءْ
ومعابِـــدَ حاليـــةَ الأفنـــاءْ
فســـألْتُ لِمَـــنْ تَقِـــدُ الأضـــواءْ
ألِظـــلٍ مَـــلَّ مِـــنَ الإصـــغاءْ
أمْ ريـــحٍ ضَـــلَّتْ فِي بيـــداءْ
أمْ غصْـــنٍ هدَّتْـــهُ الأنـــواءْ
لـــمْ تَبْـــكِ عليـــهِ سِـــوى الأفيـــاءْ
أنـــا آتٍ مِـــنْ أرضٍ قمْـــراءْ
أتعثَّـــرُ فِي لَيْـــلِ الأحيـــاءْ
وأدورُ بخابيـــةٍ عـــذراءْ
تنثـــالُ علـــى يَـــدِها الحَمْـــراءْ
صـــهباءُ ليســـتْ كالصَّـــهْباءْ..
يـــا سـِدّاً! يـــا شـــفةً خرســـاءْ
هـــل ضـــاعَتْ؟ هـــل نـــأتِ الأشـــياءْ
فيمـــوتُ الصَّـــوتُ سِـــوى إيمـــاءْ
وكـــأنَّ الأرضَ كُـــوى بلـــهاءْ
وعُيـــونٌ مِـــنْ شُـــهبٍ سَـــوْداءْ
فيضـــيقُ الفـــارِسُ بالأصْـــداءْ
بالصَّـــمتِ يَعُـــبُ دَمَ الآنـــاءْ
ويحـــسُّ بأنفـــاسٍ غبْـــراءْ
بلهـــاثِ الطـــلِّ علـــى الرَّمضـــاءْ
بـــالأعيُنِ تصـــرُخُ بالنكبـــاءْ
هَـــلْ أدفُـــقُ؟ هـــل أعِـــدُ الصَّـــحْراءْ..
فيَمُـــدُّ يديـــهِ بـــلا إبْطـــاءْ
ويُشِـــيرُ فترتَعِـــدُ الأجـــواءْ
ويُغلغِـــلُ في غـــبْشِ المينـــاءْ..

-٣-

لا نجْـــمَ يُحَـــدِّقُ.. لا أضـــواءْ
لا ظِـــلَّ يُهـــاجِرُ في الظلمـــاءْ



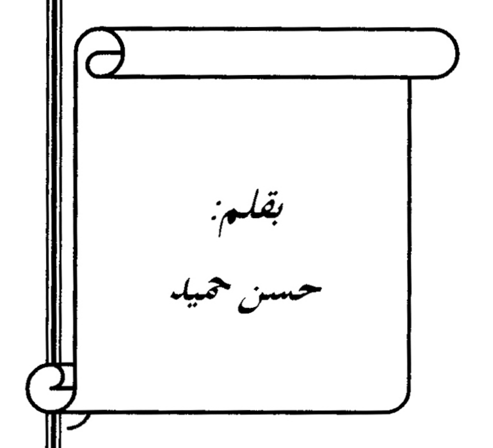

اللَّيْلَـــــةُ ســــــاجِيَةٌ غَمَّـــــاءْ
والطفـــــلُ يُحَـــدِّقُ في إعيـــاءْ
ويَحِــــنُّ إلى فَــــرَسٍ دَهْمــــاءْ
تَخْتــــالُ بفارِســــها في المـــــاءْ
ويقـــولُ ســــيَرْجعُ ذاتَ مســـاءْ
وســـــينزِلُ في أرضٍ جَـــــرْداءْ
فيمــــوجُ الزَّهْــــرُ بهـــا أجنـــاءْ
ويقـــولُ ســـيوقِظُني إنْ جـــاءْ
وســــأعلمُ مِـــنْ فَمِـــهِ مـــا شـــاءْ
عــــن أرضٍ نائِيَــــةٍ خَضْــــراءْ
لا تَنْصــــبُ عَرْشـــاً للبَغْضـــاءْ
عــــن قصـــرٍ تَحْرُسُـــهُ عَنْقـــاءْ
لا تَسْـــكُنُ فيـــهِ سِـــوى الأصــداءْ
عَـــنْ ســـارٍ يوغِـــلُ في بَيْـــداءْ
فتُضـــيءُ لَـــهُ دارُ غَيْنـــاءْ
تَتـــألَّقُ لَـــهُ دارُ غَيْنـــاءْ
تتـــألَّقُ أبهـــاءً.. أبهـــاءْ
ويعـــودُ بأصـــدافٍ زَرْقـــاءْ
وبقيـــةِ طـــوقٍ مِـــنْ أنـــداءْ
نَسِـــيَتْهُ ســـاحِرَةٌ رَعْنـــاءْ
عَـــنْ فُلْـــكٍ لَـــمْ يرَهـــا ميناءْ
تســـتدفئُ في قلـــبِ الظَّلْمـــاءْ
عَـــنْ صـــوتٍ مَوْلُـــودٍ في المـــاءْ
يتصـــيَّدُ قافِلَـــةً بَكْمـــاءْ..
ويَمُـــدُّ الطفـــلُ يـــداً بَيْضـــاءْ
هيهـــاتَ! لقَـــدْ غفُـــتِ الضَّوضـــاءْ
فلتَبْـــقَ الفُلْـــكُ بـــلا إرْســـاءْ..
وينـــامُ اللَّيْـــلُ ســـوى أصْـــداءْ
أصْـــداءٌ تَلْهَـــثُ في إعتيـــاءْ
أصـــداءٌ.. غامِضَـــةٌ.. خَرْســـاءْ
أصـــداءٌ.. أصـــداءٌ.. أصـــداءْ






الباحث أحمد الخوص *

يؤسس لثقافة لغوية تنفع الأمة وتحافظ على الهوية



ما كان يخطر ببالي قط، أن تتاح لي الفرصة لأتحدث عن أحمد الخوص الإنسان الباحث الدؤوب، والرجل المقتدر الصبور، والهمام الذي نذر نفسه خادماً لأقدس اللغات وأكثرها شرفاً ورتبة، وأجلها معنى ودلالة، وأزكاها في الحضور والمكانة.. وذلك لأن الرجل محاط بكوكبة من الأصدقاء يتقدمونني في معرفته كما يتقدمونني في الحظوة لديه.. فأنا لست من الملازمين له، ولا من رصفائه، ولا ممن يخالطونه يومياً.. ولكنني أحسب نفسي صديقاً له.. أعجبتني سيرته الذاتية، وسرني مسعاه في الحياة، وأطربني طموحه الذي لا يحد، وإخلاصه الشديد للغة العربية، وحرصه الأبدي على دوام القيم النبيلة.. وعزة نفسه، وأصالته، واعترافه بالجميل، وذكره الدائم لأولى الخطا السرانية التي أمدتها بالعافية، وهو في بداية الدرب الطويل الشاق، وذاكرته الفولاذية التي لا تنسى أحداً من هؤلاء الذين نظروا إليه بقلب خاشع، وعين حباها الله بالحياء المعرفي...، ونفس احتشدت بالمكرمات.

كنت مثل غيري أسمع عن أحمد الخوص، فأقول كما يقول المثقفون من حولي إنه ناقل قواعد، يأخذها من هنا خفية ليظهرها هناك في كتاب علانية..

وإنه أشبه بأصحاب الكراريس الذين ينشطون قبيل امتحان الشهادتين الإعدادية والثانوية، فيخرجون كراريسهم بأسئلة سابقة، أو موضوعات إنشائية مرصوفة، أو أمثلة شارحة للقواعد، عاربة للمفردات والجمل..

أصارحكم أن هذا ما كان يقال قبل سنوات عن أحمد الخوص، لكن هذا القول لم يكن سوى تخرصات، وجهل بالرجل، وعماء لا يريد رؤية المشروع اللغوي الكبير الذي يعمل عليه ولأجله أحمد الخوص..

وكان أن زارني أحمد الخوص حيث أعمل في اتحاد الكتاب العرب، وما إن عرفني بنفسه حتى قال، أنا لا أحب الإزعاج، ولا أريد الجلوس، ولا شرب الشاي..

ما أريده هو أن تنشر لي خبراً عن إصدار جديد لي يدور حول اللغوي المعروف الغلاييني.. قلت وأنا أتمعن في محياه، ودونما إبطاء: حاضر. فقال كلمة واحدة (شكراً) وخرج، فلحقت به، قلت له وقد رأيت حبات العرق.. مثل قطرات الندى تتآخى فوق جبينه العريض.. يا رجل. اجلس قليلاً. لكنه أبى. كان أشبه بالنسمة في دخوله وخروجه في آن معاً. وأخذت كتابه وقلبته بين يدي كي أكتب خبراً ثقافياً عن صدوره، لكنني وجدت الكتاب قيماً، تحتشد المعلومات فيه مثلما تحتشد أجمات القصب حول الأنهار.. فقلت، ولأن الكتاب مهم، لابد من كتابة قراءة حوله، وتقديم ما فيه من خير وزاد للقراء الكرام، وقد حدث هذا، وحين صدر العدد عوتبت من قبل رئيسي المباشر في العمل، وكان آنذاك الدكتور علي عقلة عرسان، لأنني أفردت حيزاً كبيراً للحديث عن كتاب أحمد الخوص، ولأنني نشرت صورة كبيرة للكتاب.. وسبب العتاب أنني اهتممت بكتاب أحمد الخوص وبغلافه أكثر من اهتمامي بالكتب الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب وأصحابها أدباء معروفون، فدافعت عن وجهة نظري بأن هذا الكتاب ليس قصة أو رواية، أو دراسة في حقل معرفي معين.. قد يهم شريحة من أبناء المجتمع والمثقفين، وإنما هو كتاب في اللغة يهم الناس جميعاً. وفائدته أشبه بفائدة المطر الذي يعم بخيره الإنسان والطير، والأرض والسماء.

وجاءني أحمد الخوص كي يأخذ الصحيفة.. فدهش لما فعلته، وقد ظن أن خبراً بحجم الفرنك.. سيتولى التعريف بكتابه..

وخرج من عندي شاكراً، بعدما أرغمته على شرب الشاي نكاية بالمرة السابقة.. ولم أدر أنه سيذهب إلى الدكتور علي عقلة عرسان ليشكره أيضاً..

وهناك، في مكتب الدكتور علي عرف أنني عوتبت، وأنه لامني بسبب تفريطي بحق من حقوق أعضاء الاتحاد.. أخذ بعضه أحمد الخوص.. وعاد إلي وقد احمر وجهه، ودمعت عيناه.. قال لي بعتب أبوي: بهدلك علي عقلة عرسان من أجلي..

فضحكت. قلت من أجل أحمد الخوص ومن أجل اللغة العربية تهون كل بهدلة، ويهون كل عتاب.. لأنني لا أخالف قناعتي.. فما كان منه إلا أن دنا مني وأخذني إلى صدره وعانقني.. فشعرت بنداوة دمعه على صفحة خدي.. فربت على كتفه مطيباً خاطره.. كي لا يبقى حزيناً لأجلي..

منذ تلك الدموع النبيلة، وذلك الموقف الإنساني الكبير.. لم أفترق بعيداً عن أحمد الخوص، فكان أن زرته في منزله.. وأكرمني بكتبه.. التي ساعدت أولادي على حب اللغة العربية والتفوق بها.. وأظن أن هذا ليس شأني وحدي.. فأحمد الخوص كائن معرفي موجود في كل بيت، وفي كل مدرسة، وفي كل وجدان.. إنه أستاذ الجميع دون أن يجتمع بهم.. فرسالته اللغوية وصايا تحفظ، ودروس تقرأ، وعلوم يفتخر بها..

وثمة حادثة، لابد لي من أن أذكرها، كي لا يظن أن مشروع أحمد الخوص موجه

إلى التلامذة وحسب.. أو أنه موجه لمن فاتهم التعليم المدرسي..

قبل نحو عقد ونصف العقد، أو أكثر بقليل، مر بي صديق يعمل أستاذاً جامعياً في إحدى جامعات المملكة العربية السعودية. مر بي في بيتي المحاذي لطريق دمشق - عمان.. حاملاً إلي زجاجات مملوءة بماء زمزم.. فأجلسته في مكتبتي، ورحبت به، وخرجت كي أحضر الشاي، وما إن عدت إليه، وبعد غياب قصير، حتى وجدته ناهضاً على قدميه، وهو يتصفح عناوين الكتب التي جثمت على الرفوف الواطئة والعالية.. وما إن شعر بدخولي حتى قال لي.. أرجوك أنا بحاجة ماسة إلى أن أستعير منك بعض الكتب، قلت متعجباً وأنا أردد جملته (بعض الكتب)! قال: نعم. قلت: اختر ما شئت. قال وهو يشير بيده الممدودة نحو كتب أحمد الخوص المتجاورة: هذه. قلت: كتب أحمد الخوص!. قال: كتب أحمد الخوص. فدهشت. وسبب دهشتي هي أن صديقي هذا الأستاذ الجامعي خريج أهم جامعات فرنسا، واختصاصه هو اللسانيات، ومع ذلك، وإكراماً له.. أعطيته الكتب. وأخذنا الحديث إلى عوالم أخرى.. ونهض صديقي ومضى.. ولم أره.. إلا في العام التالي.. وقد جاء إلي أيضاً ومعه زجاجات ماء زمزم.. وما إن دخل.. حتى قال لي: لقد أكرمني الله عز وجل في العام الفائت إكراماً ما بعده إكرام.. قلت: الحمد لله، لعلك تقصد الناحية المالية. قال: دعك من المال.. الإكرام كان أن جعلني أشعر بأنني أستاذ جامعي بحق وحقيق. قلت: كيف؟! قال: جاءتني ثناءات كثيرة من الجامعة، ومكافآت مالية عديدة.. لأنني تميزت عن غيري في مجال التدريس.

قلت: والسبب؟. قال: السبب كتب أحمد الخوص. قلت: نعم!. قال: نعم كتب أحمد الخوص. قلت: واللسانيات الفرنسية، وأسلوبية بارت، وجان كوهين، وجيرار جنيت!. قال: دعك من كل هذا.. الأصل في ثقافتي اللغوية: أخذته هذا العام من كتب أحمد الخوص، كنت في العام السابق أقنع الطلاب بصلعتي، وشيبتي، وإرجاء الأجوبة إلى أوقات قابلة.. لكن في هذا العام جلت كتب أحمد الخوص حقيقتي فبدوت لطلابي، وزملائي عارفاً، أو قل عالماً باللغة العربية..

ليست هذه حادثة فردية، وقد قرأ الناس كتب أحمد الخوص وتعلموا عليها.. وإنما هي حادثة من حادثات.. يحاول بعض الناس كتمانها، ولكن النبل يقتضي منا أن نرد الفضل لأهله، وأحمد الخوص رجل ذو فضل، وذو علم، وذو اجتهاد.. إنه أشبه بأزهار البنفسج التي لا يغيظها تطاول نباتات الشوك من حولها.. ذلك لأنها تعرف نفسها جيداً.. وتعرف معاني التواضع، والصبر، والذكر الحميد. وهو أشبه بالأشجار العظيمة العطاء.. التي تؤتى في مواسمها كي ترجم بالحجارة.. ولكنها تظل ثابتة، لها في كل عام ثمر جديد.. ولها في كل مراجعة كف تحيد الأذى.. كي تظل للنبل سيرته.. ومعانيه الكبار.

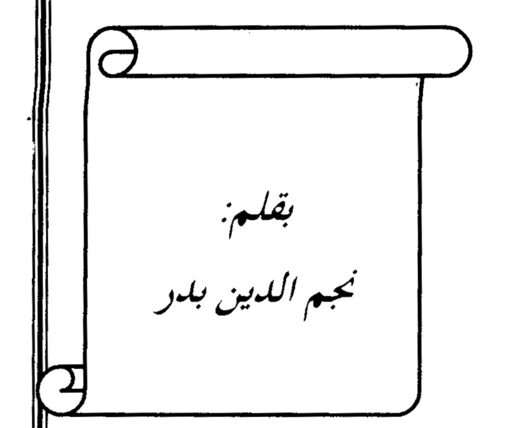
بلى، ما أعز الوقت الذي يكرمني.. بالحديث عن أحمد الخوص.. اللغوي البارز الذي حفر دربه بأظفاره.. وجلده، والرؤى التي حباه الله بها.. كي تنتفع بعلمه أمة كاملة.

* *نص الكلمة التي ألقاها الكاتب في حفل تكريم الباحث أحمد الخوص الذي تم مؤخراً في الزبداني.*

شاعر العروبة بدوي الجبل

ومواقف مشرفة

للدفاع عن الأمة العربية؟!



بقلم:

نجم الدين بدر

لما كان الشعر ديوان العرب، فقد اقتضى على الباحث التقصي الدائم والتجوال المستمر في ثناياه ليتوقف عند أفانين وفنيات من المستوى الراقي في الأدب العربي عبر العصور. ولعل بعض الأدباء والشعراء في التاريخ العربي لم يوفوا حقهم من الدراسة والتمحيص.. بالرغم من عطاءاتهم الشعرية.. وأولئك على قلتهم فهم كثر.. وكان الشاعر بدوي الجبل واحداً منهم.

لقد عاش شاعر الأمة العربية بدوي الجبل وهو يحمل آلام الأمة عبر التاريخ في طياته إنه الشاعر(محمد سليمان الأحمد) وكان ثورة في حد ذاته.. فقد عالج قضايا أمته العربية بأدبه وشعره حيث لم يكن يعرف الكلل والملل في ثورته تلك.. إضافة إلى ميوله السياسية في مطلع القرن الماضي.. حيث رحل عن وطنه متجهاً إلى باريس ولندن وغيرها من العواصم الأوروبية... ولم يعد إلى وطنه إلا بعد ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ وأعلن انه سيبقى في الوطن، يدافع عن قضاياه بقلمه وبكل جوارحه بعد معاناة قاسية في بلاد الغربة كانت قصائده خلالها تعني الإبداع الفني العميق والدفاع عن قضايا الأمة العربية.

لقد نبغ شاعرنا في شتى مواضيع الأدب.. فمن قصيدته الرائعة وهو يقف أمام مشهد احتلال الألمان لفرنسا وما أثارت فيه مشاعر احتلال فرنسا لسورية وما عاناه الشعب السوري مذكراً فرنسا بذلك قائلاً في (أني لا شمت بالجبار):

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا
رق الحديد وما رقوا لبلوانا
سمعت باريس تشكو زهو فاتحها
هلا تذكرت يا باريسِ شكوانا
تعضنى الذل غفرانا لظالمها
تأنق الذل حتى صار غفرانا

وأنت تتناول ديوانه لا تستطيع أن تعرف من أين ستجمع الورود وتنسقها فللألم في شعره طعمه الخاص ولذته المحببة فهو يتمتع بالألم ويتغنى به ففي قصيدته (نم بقلبي) تعلو فوق كل شيء تبدد هذا الألم بل وتطلب زيادته فيقول:

إن قلبي خميلة تنبت الأحزان
ورداً ونرجساً وشقيقا
لو على الصخر نهلة من جراحي
راح مخضوضل الظلال وريقا

وفي أصدق تعبير عن ذات البدوي محمد سليمان الأحمد بحزنها وفرحها تجدها في قصيدة رثاء ابنته فهو يذكرها بعنفوان الرجل ويذرف دمعة عليها بحنان الأبوة فيقول في (وفاء القبور):

وقد أحن إلى حسن يدللني
كما يحن إلى أندائه الزهر
أدعوا قبور أحبائي لتسمعني
وهل تجيب نداء الثاكل الحفر

لقد وصفه الشاعر الراحل نزار قباني (بالسيف اليماني المعلق على صدر الأمة..) كما وصفه الشاعر المرحوم (محمد مهدي الجواهري) بالشاعر الذي يُحسب له ألف حساب.. في شعره الغزلي نفحة من أمرئ القيس وبشار بن برد وغيرهما. وفي شعره القومي نسج من أفراح أمته العربية.. كما تألم كثيراً لما أصابها من ويلات.. وفي أي موقع كان ترك آثاراً لم يسبقه إليها أحد في عصره... كما وصفه الشاعر الشيخ عبد القادر المغربي بالدرة الثمينة.

كيف نشأ بدوي الجبل: ولد محمد سليمان الأحمد الشاعر (بدوي الجبل) في قرية ديفة في محافظة اللاذقية منطقة القرداحة سنة (١٩٠٣م) إنه ابن العلامة الشيخ سليمان الأحمد الذي كان إماما في الفقه واللغة والأدب.

تتلمذ بدوي الجبل على يدي والده الشيخ فازدادت ثقافته، واطلع على أنواع العلم والمعرفة وغيرهما من ضروب العلوم الأخرى.

حينما بلغ الحادية عشرة من عمره سجله والده في مدرسة إعدادية بمدينة اللاذقية، سكن فيها مع عائلة كانت موضع ثقة لأبويه... وتحدث البدوي عن المرحلة التي دخلت فيها القوات الفرنسية الفاشية إلى مدينة اللاذقية: ذات يوم فوجئنا بعسكري يدخل إلى ديارنا يزور والدي موفداً من قبل رشيد طليع متصرف حماة حاملاً استدعاء ليعود بي إلى دمشق لإنهاء دراستي هناك وقد نزل والدي عند رغبة صديقه فانتقلت إلى دمشق للمرة الأولى حيث التحقت بمدرسة عنبر بدأت فيها بنظم الشعر لكن بقائي في هذه المدرسة لم يدم طويلاً لأن الملك فيصل عين رشيد طليع وزيرا للداخلية فيما كانت ثورة الشيخ صالح العلي في بدايتها. لقد صدرت إدارة وطنية بإرسال وفد حكومي إلى الشيخ صالح العلي حول أمور الثورة فتألف الوفد من وزير الداخلية ووزير الدفاع يوسف العظمة ثم أردف الشاعر بدوي الجبل ركبت القطار إلى حماة مع الوفد متجهين إلى المناضل الشيخ صالح العلي ومن بعدها أقلتنا عربة خيل كان الأمن معدوما تقريبا والمسافر يتعرض لأبشع الظروف ولاسيما عصابة (فهد شاكر) تصدى لنا أفراد هذه العصابة فوقعنا في قبضتهم وسلبونا كل ما نملك ثم اتجهوا نحوي قال أحدهم: أحقاً أنت ابن الشيخ سليمان الأحمد قلت نعم: فصرخ أحدهم: لن يحرسكم في هذا الطريق إلى بيت الشيخ صالح إلا وجود هذا الفتى بينكم.. ثم تابع الوفد الرحلة حتى بلغ منزل الشيخ الذي ازداد ترحيبه بعد أن تعرَّف عليّ، وكان جوابه: أبلغوا الملك فيصل أنني لا أريد المال أنما أريد بقاء هذا الفتى معي ثم عاد الوفد إلى دمشق حيث اطلع الملك فيصل على تفاصيل ما جرى.

النضال لقومي لبدوي الجبل

مرت السنون بسرعة لاقى خلالها الشاعر الصعاب عصرته الحياة.وفي أحد الأيام كان في طريقه إلى حماة متسللاً الجبال إلا أن الفرنسيين استطاعوا التمكن منه مختبئاً في أحد خانات حماة فأذاقوه ألوان العذاب.

وبعد ذلك نقلوه إلى مدينة حمص ثم بيروت حيث بقي فيها شهراً ونيف فأرسلوه بعدها إلى السجن في (جزيرة أرواد) وبعد وساطات كثيرة اخرج عنه لصغر سنه في ذلك الوقت.

انتمى بدوي الجبل إلى الكتلة النيابية وأصبح ممثلا لتلك الكتلة في المجلس النيابي السوري ليمثل فيها الساحل السوري.

موقف بدوي الجبل من انقلاب حسني الزعيم:

في ١٣ آذار ١٩٤٩م قام الزعيم حسني الزعيم بتشكيل حكومة انقلابية وطلب من الشاعر بدوي الجبل والنائب أسعد هارون نائب عن اللاذقية تشكيل الوزارة الجديدة فوافق (أسعد هارون) في حين رفض الشاعر التعاون مع (حسني الزعيم) لأنه كان معارضاً لنظامه ونظام (سامي الحناوي) فأصدر أمراً باعتقاله ولكن محافظ اللاذقية آنذاك المجاهد (سعيد السيد) من دير الزور نزل من سيارته ونقله بسيارته الرسمية إلى الحدود السورية – اللبنانية. وهذا الموقف من (أبو جحدر) يعتبر من المواقف المشرفة له.

أثر الانقلاب على (أديب الشيشكلي) تلقى بدوي الجبل من الكتلة الوطنية طلبا باستدعائه فورا لدخول الوزارة لكنه رفض في البداية ، وبعد إلحاح شديد تم تخييره بين وزارات ثلاث (الصحة – العدل – المعارف) فاختار الصحة التي لم تستمر أكثر من ١٠٠ يوم قضى معظمها في جنيف.

محاولة فاشلة لاغتياله؟!

في عام ١٩٦٨ كان يمارس رياضة المشي كعادته.. وإذا بأحد الأشرار يعتدي عليه ويقوم بطعنه في رأسه طعنة أفقدته الوعي.. نقل على أثرها إلى مكان خفي.. إلا أن هذه المحاولة منيت بالفشل الذريع بفضل تدخل كريم من وزير الدفاع القائد الخالد حافظ الأسد.. حيث أمر بعلاجه في أحد مشافي الدولة.. إنه موقف نبيل وشجاع ومشرف من الرفيق القائد الخالد حافظ الأسد فبفضله تم إنقاذ حياته ثم اعتزل الشاعر السياسة بعد أن أدى واجبه الوطني.

رحيل الشاعر؟!

في١٩/٨/١٩٨١ رحل بدوي الجبل ولم يأخذ حقه من الدراسات والاهتمام لأن الكتب التي صدرت له كانت ضحلة جداً.

صدر له كتاب داخل سورية وكتابات خارجها.. لقد أعاد بدوي الجبل الصفاء والنقاء إلى اللغة الشعرية وحلق بها بعيداً في عالم من الصوفية الحالمة.

لم نجد لهذا الشاعر في مكتباتنا أثراً لبعض دواوينه ومنها ديوانه ((مرجع بدوي الجبل بين الساسة والأدب)).

أما في مدارسنا وجامعاتنا لا يدرس الشاعر كحالة إبداعية وإنما اكتفت المناهج المدرسية بوضع نص من نصوصه فقط.

فقد مرّ الشاعر بدوي الجبل بمرحلة صعبة في حياته.. حيث أنسته نفسه في خضم الانقلابات التي كانت تتوالى على سورية.. وعانى من الحيف والظلم. كما عانى غيره من الأدباء والشعراء دون أن يجدوا من ينصفهم ويعيد لهم ألقهم الإبداعي.

لعله الحزن النقي الذي عبر عنه الأديب الراحل (ممدوح عدوان) في رثائه لأحد أصدقائه عندما قال: العزاء الوحيد الباقي في هذه الدنيا أنه مازال فيها من يبكينا فراقهم.. ولكن إلى متى؟! وكم بقي من هؤلاء؟!




أنا وأنتِ وليلُنا الساهر

شعر: د. كمال فوزي الشرابي

أنـــا وأنـــتِ وليلُنـــا الســـاهرْ
هـــذا الصـــديقُ المخلـــصُ الســـاحرْ
حـــبٌ علـــى بـــوحٍ علـــى خمـــرةٍ
حتـــى نـــودِّع بـــدرَنا الســـامرْ

* * *

أنـــا وأنـــتِ وليلُنـــا النـــاعمْ
هـــذا الرفيـــقُ المُـــترَفُ الحـــالمْ
حـــبٌّ علـــى شِـــعرٍ علـــى نغـــوةٍ
حتـــى يُفيـــقُ هزارُنـــا النـــائمْ

* * *

أنـــا وأنـــتِ لليلِنـــا عَبَـــقُ
وخميلـــةٌ زهـــراءُ تعتنِـــقُ
يـــا ليتـــه يبقـــى لنؤنِسَـــهُ
أبـــداً، وتُمحـــى دونَـــهُ الطُـــرُقُ

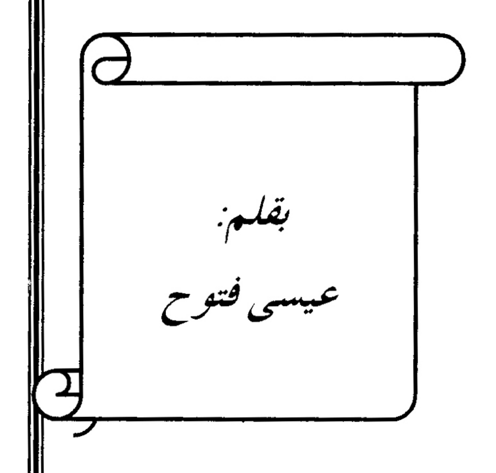



نقولا فياض

شاعر

رفيف الأقحوان

١٨٧٣-١٩٥٨



الدكتور نقولا يوسف فياض طبيب وشاعر وخطيب ومترجم لبناني، وعضو المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) بدمشق، وشقيق الشاعر إلياس فياض (١٨٧١-١٩٣٠).

ولد عام ١٨٧٣ في بيروت، في أسرة معروفة، تهوى الأدب والشعر والفن، وتلقى دراسته في مدرسة "الثلاثة الأقمار" الأرثوذكسية، وكان من أساتذته فيها المعلم "نعمة يافث" الذي غرس في نفسه حب الشعر والأدب، فأهداه ديوانه الأول "رفيف الأقحوان" قائلاً: "إلى روح معلمي نعمة يافث الذي قاد خطواتي الأولى في حياة الفكر والعمل، وكان له أول إنشادي".

عمل بعد تخرجه من المدرسة في التجارة مدة سنتين، ثم ترك التجارة، ودخل كلية الطب الفرنسية في بيروت عام ١٨٩٩، ولما أنهى دراسة الطب عمل في مستشفى القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس في بيروت، إلى أن سافر عام ١٩٠٦ إلى باريس للتخصص في الطب، فأمضى فيها خمس سنوات، عاد بعدها إلى مصر، حيث أمضى عشرين عاماً تقريباً، متنقلاً بين الإسكندرية والقاهرة، وأسهم بالحركة الأدبية فيهما بشكل واسع.

في عام ١٩٣٠ عاد إلى بيروت، وخَلَف أخاه الراحل إلياس فياض في مقعده بمجلس النواب اللبناني، ثم عُين مديراً لمؤسسة البريد والبرق والهاتف مدة أربع سنوات، وبعد ذلك اعتزل الوظائف، وآثر الانصراف كلياً إلى ممارسة الطب والكتابة والترجمة ونظم الشعر، والاجتماع برفاق حلقته الأدبية المؤلفة من الأدباء والشعراء: بشارة الخوري (الأخطل الصغير) وجرجي سعد، وطانيوس عبده، وبيترو باولي، واسكندر العازار، وقسطنطين يني، وجرجي نقولا باز، وجرجي شاهين

عطية، ومصطفى الغلاييني، وإلياس فياض، وأديب مظهر، ووديع عقل، وأمين تقي الدين، وتامر وشبلي الملاط، وموسى نمّور، وإلياس أبو شبكة، وصلاح لبكي.. إلى أن وافته المنية عام ١٩٥٨ وهو في الخامسة والثمانين.

آثاره الأدبية

١- الآثار المؤلفة: خواطر في الصحة والأدب ١٩٢٧ - الخطابة ١٩٣٠ - على المنبر (الجزء الأول) ١٩٣٨ - كيف تغلب الإنسان على المرض ١٩٤٦ - كيف تغلب الإنسان على الألم ١٩٤٧ - دنيا وأديان ١٩٤٨ - رفيف الأقحوان (شعر) ١٩٥٠ - بعد الأصيل (شعر) ١٩٥٧.

٢- الآثار المترجمة: الخداع والحب (تمثيلية) لشيلر ١٩٠٣ - حول سرير الإمبراطور لكابانيس ١٩٢٦ - مملكة الظلام أو حياة الأرضة لمترلنك ١٩٢٧ ـ أنتِ وأنا (شعر) لبول جيرالدي ١٩٦٠.

فياض الشاعر والخطيب

أسهم الدكتور نقولا فياض في الحركة الأدبية إسهاماً كبيراً في كل من مصر ولبنان، وعمل في حقل الصحافة فراسل مجلتي المقتطف والهلال، وحرر في جرائد: الأهرام والأخبار والبصير والشرق، ومجلة الأديب اللبنانية، كما نظم الشعر وألقى الخطب الرنانة بدءاً من عام ١٨٩٩، حتى لُقب بـ "أمير المنابر"، ومن خطبه المشهورة: القلب البشري، والمرأة والشعر، وبين العجز والقدرة، وزهرة الإحسان، والمدرسة الأهلية، والتجديد في الشعر العربي، وتكريم الأب معلوف، ونخب سليمان البستاني... وقد جمع هذه الخطب وغيرها في الجزء الأول من كتابه ""على المنبر"" الصادر عن دار المكشوف في بيروت عام ١٩٣٨، وكان يستهل خطبه بقصيدة من شعره، ثم يتبعها بالنثر، كقوله في خطبة ""القلب البشري"" التي ألقاها في جمعية ""شمس البِرّ"" عام ١٩٠١:

أسعد اللهُ مساءَ الصُّحُبِ
سادةَ الفضلِ الكرام النُّجُبِ
وحمى اللهُ حمى جمعيةً
جمعتكم يا خيارَ العربِ
هي شمسُ البر إلا أنها
تجمع اليومَ شموسَ الأدبِ
ما عسى ينظِمُ فيكم شاعرٌ
شاعرٌ بالعجزِ لا بالتعبِ
وقف اليومَ خطيباً بينكم
بعدما ودَّع فنَّ الخُطَبِ
قلبُهُ أصلُ بلاهُ فاعذروا
إن شكا من قلبه المضطربِ
إنما القلبُ كتابٌ غامضٌ
فيه للمرأة أسمى مطلبِ
ولذا لم تلقَ قلباً خافقاً
لا ينادي هي أصلُ السببِ...

لقد ضم ديواناه "رفيف الأقحوان" و "بعد الأصيل" كل ما نظمه في حياته من قصائد، منذ عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٥٧، ويغلب شعر المناسبات على هذه القصائد، ولا عجب في ذلك، فقد كان من الشعراء البارزين الذين طارت شهرتهم في الخطابة وقول الشعر، ولذلك تفاوتت قصائده من حيث الجودة، فبعضها "يتمرغ في الثرى، وبعضها يناطح السحاب" كما يقول مارون عبود (١٨٨٦-

١٩٦٢)، وكان بإمكانه الاستغناء عن بعض القصائد التي نظمها في مطلع حياته الأدبية، قبل أن تنضج شاعريته ويسمو بيانه، فجاءت مفتقرة إلى عمق التجربة وصدق العاطفة.

لكن هذا لا يعني أن جميع قصائد ديوانيه كانت على هذا المستوى، فثمة قصائد أخرى - وهي كثيرة - بلغ فيها ذروة الفن والإبداع وسمو الخيال، كقصيدته ""أنا وأنتم"" التي ألقاها في الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٤٢، في حفلة مع الأديبة النابغة مي زيادة (١٨٨٦-١٩٤١) وقال فيها:

يا ميُّ هذي ساعةُ الميلادِ
فسلي فؤادَكِ عن خفوقِ فؤادي
بي ما بكِ وحشةٌ وصبابةٌ
ما بين لقيا ساعةٍ وبعادِ
تمشي إلى الوطنِ القديم خواطري
فتردُّها الذكرى لذاكَ الوادي
وأرى جلالَ سناكِ يا أفقَ الهدى
فأحار بين الصمت والإنشاد

وقصيدته الحوارية "المرأة والشاعر" التي تطلب فيها المرأة منه العودة إلى الحب، بعد أن لاح ربيعه في الأفق، وبدت طلائعه في اخضرار الطبيعة، وشدو الطيور قائلة بلسانه:

عُدْ للهوى فربيعُهُ قد عاد
والعشبُ للعشاقِ مدَّ وسادا
وعلى الأرائك للهزارِ مواقفٌ
تستعبد الأرواحَ والأجسادا
فعلامَ شعركَ لا يكون لها صدىً
أعَدمتَ نطقاً أم عدمتَ فؤادا؟

فيجيبها:

لا، لا فقلبي قد عرفت خفوقَهْ
هيهات قلبي أن يكون جمادا

وقصيدته "الأعمى الجائع" التي ألقاها في حفلة خيرية أقامتها جمعية "إغاثة العميان في سينما روكسي في بيروت، وقد صور فيها الأعمى أصدق تصوير، وشحنها بأرق العواطف الإنسانية، فالفجر في عينيه ليل مظلم، ورؤية ما حوله محرمة:

الفجرُ حول سريره يتبسم
والفجرُ في عينيه ليلٌ مظلمُ
تمشي أشعتهُ على أهدابه
فيردُّها عنه ستارٌ مُحْكَمُ
وتنيره الأقمار كل عشية
لكن منظرها عليه محرم
ذهب القضاءُ بنجمتيه فما الذي
توحي إليه شمسُهُ والأنجمُ؟
هذا هو الأعمى، وحَسْبُ فؤاده
جوعاً فكيف به إذا جاع الفمَ؟!

وقصيدته "يا ليل" التي قالها عام ١٩٣٩ ونحا فيها منحى التجديد، فسبق جميع معاصريه الذين دعوا إلى التحرر من الأبحر الخليلية، والقوافي التي تكبّل الشاعر بقيودها، كبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، والدكتور بديع حقي وغيرهم... يقول في هذه القصيدة:

خففِ الوطءَ عليّا
علنيَ أفهم شيّا
منك يا ليلِ
كلما أطلقتُ فكري
فيك يجري
كنت كالخابط في أمواج بحر

تحت عمقٍ
يتلوّى مثل قيد تحت عنقي
وبأذني طنين، لا يبين
من هدير الشرِ
وصراعِ القدرِ...

وقصيدته التي ألقاها في مهرجان المتنبي بدمشق، وعبر فيها عن تآخي وتلاحم القطرين الشقيقين سورية ولبنان، وحبه الجارف للشام قائلاً:

لبنانُ يسكب في جفونِ الشامِ
قبلاً كذوبِ الطلِ في الأكمامِ
قبلَ الشقيقِ إلى الشقيقِ حملتها
ومزجتُ فيها صبوتي وهيامي
قالت تحب الشامَ، قلتُ وهل سوى
بردى يبرّدُ يا شآمُ أوامي؟
الشرق شرقي أين لاحت شمسُهُ
ودمُ العروبة في دمي وعظامي
"لي في هوى وطني كتابٌ خالدٌ
يبقى على المكتوب من أيامي"
"سجلت نصرانيتي في متنه
ونشرت فوق سطورِه إسلامي"...

وأروع وأجمل من هذه القصائد كلها قصيدته "البحيرة" للشاعرِ الفرنسي لامارتين التي عربها شعراً موزوناً مقفى، وقلّد فيها ابن زيدون في قصيدته "أضحى التنائي"، فلاقت صدى واسعاً، وحفظها القاصي والداني، رغم أن أكثر من شاعر عرّبها شعراً أو نثراً، يقول فيها:

أهكذا أبداً تمضي أمانينا
نطوي الحياةَ وليلُ الموتِ يطوينا
تجري بنا سُفنُ الأعمارِ ماخرةً
بحرَ الوجودِ ولا نلقي مراسينا
بحيرةَ الحبِ حياكِ الحيا فلكم
كانت مياهُكِ بالنجوى تحيّينا
قد كنتُ أرجو ختامَ العامِ يجمعنا
واليومَ للدهرِ لا يرجى تلاقينا
فجئتُ أجلسُ وحدي حيثما أخذتْ
عني الحبيبةُ آيَ الحب تلقينا
هذا أنينكِ ما بدّلتَ نغمتَه
وطالما حُمِلَت فيه أغانينا
وفوق شاطئك الأمواجُ ما برحت
تلاطم الصخرَ حيناً والهوا حينا

ولم يكتف بتعريب هذه القصيدة الخالدة، بل عرّب أيضاً قصيدة "اذكريني" لألفرد دي موسيه بالاشتراك مع أخيه الياس فياض، وقصيدة "السيف" لسولّي برودوم، و"الزهرة والفراشة" لفكتور هيجو التي يقول فيها:

زهرةٌ في الحقلِ يوماً سألت
من فَراشِ الحقلِ معشوقاً صغيرا
ما الذي يلهيكَ عني جاعلا
لك كالنجمِ اختفاءً وظهورا
غائباً حيناً، وحيناً حاضرا
مالئاً نفسي غياباً وحضورا
أفما أنتَ رفيقي في الهوى
أبداً أرشفك الثغرَ الطهورا
عائشاً في عزلةِ الحب معي
لا ترى إنساً ولا تخشى شرورا...

كما عرّب ديوان "أنت وأنا" لبول جيرالدي شعراً موزوناً رغم اعترافه في مقدمة الديوان بصعوبة نقل الشعر بالشعر، إذ "من المستحيل أن تتفق تراكيب الجمل في مختلف اللغات،

والقالب الذي يختاره الكاتب أو الشاعر ليفرغ فيه معانيه، لا يمكن أن يكون واحداً فيها كلها، وإذا نحن حاولنا أن نترجم ما نريد ترجمته حرفياً للمحافظة على القالب ما أمكن، أسأنا إلى المؤلف من حيث لا ندري وإلى أنفسنا بما نقع فيه من غرابة التعبير وركاكة الإنشاء... فالترجمة الحرفية ليست بالطريقة المثلى لحفظ جمال الأصل، أو الوصول إلى أثرها في ذهن القارئ العربي، حَسْبُ المترجم أن يتفهم معاني الكاتب ويدخل في إهابه، ثم يجتهد أن يقدم للقارئ قالباً عربياً لا ينفر منه ذوقه، ولا يأباه سمعه". يقول في قصيدة "بوح" وهي أولى قصائد الديوان:

أحبك يا ميُّ حتى الجنونْ
أحبكِ حباً يفوق الظنونْ
فهل تعلمين؟

أحبك هذا كلامٌ مُعادْ
وما كان يوماً يؤدي المرادْ
ولكنْ أحبك... كيف العمل؟
أحبك... والحب غيرُ الغزلْ
فهل تشعرين؟

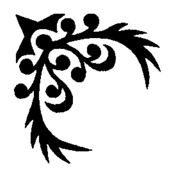
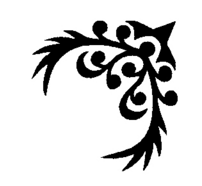
وهل من سبيل لأن تكشفي
مجاهلَ نفسي وأن تعرفي؟
فما في الحروفِ بيانٌ يفي
أفتش، أبحث عن قافيهْ
تغذي الأملْ

فليس صحيحاً بأن القبلْ
هي الكافيهْ

امتاز شعر الدكتور نقولا فياض بالرقة والعفوية والميل إلى التجديد في الأوزان والقوافي، وبامتلائه بالروح الوطنية والقومية والدعوة إلى الحرية، ونبذ الطائفية البغيضة، كقوله في قصيدة "المؤتمر الوطني":

الطائفيةُ، يا لها من نكبة
صبتْ على الفردوسِ نارَ جهنمٍ
حاربتُها دهراً بشقِ يراعتي
وصبغتُ أعوادَ المنابرِ من دمي
وصفعتُ خديها فلم أظفرْ بما
يشفي غليلَ الشاعر المتألمِ
الدينُ، نعْمَ الدينُ إن يكُ حاملا
لجراحةِ الأرواحِ أزكى بلسمِ
الدينُ تضحيةٌ وروحُ تسامحٍ
وضحىً على وجه الزمانِ الأقتمِ
الدينُ ليس بآلةً للكسبِ في
يدِ خادمٍ للدينِ، أو متزعمِ
أفدي بمالِ الأرضِ دينَ مجاهدٍ
وأبيع دينَ المستغلِ بدرهم...

كان الدكتور فياض - كما وصفه الشاعر رياض المعلوف "أنيقاً في ملبسه وحديثه وشعره، ورقة إحساسه وأخلاقه... ولست ناسياً ذلك الابيضاض في شعره، كأنه قمة جبل "صنين"، وما غابت عن نظري ربطة عنقه وأناقتها وهي معقودة ومجنحة كالفراشة، فكأنه خلق شاعراً بحركاته ووقفاته، وكما كسا قوافيه تلك المعاني والمباني الظريفة، اكتست قامته الهيبة والطلعة والإطلالة.. لم تبطره الوظائف العالية، وظل الرجل المهذب الراقي المتواضع اللطيف المعشر والحديث".

تحت المطر

شعر: الدكتورة سعاد الصباح

مـــا لهـــا الأيّـــامُ تبكـــي مـــا لهـــا
أهـــيَ مثلـــي ضـــيَّعَت آمالَهـــا
عـــاشَ قلـــبي في سُـــوَيعاتِ المُنـــى
ثُـــمَّ غشَّـــاها أســـىً فاغتالَهـــا
هـــذه أيامُنـــا تمضـــي بنـــا
وأنـــى باقِيَـــةٌ حيـــثُ أنـــا
انظِـــمُ الشِـــعرَ أشـــدو للـــهوى
وأُغنِّـــي لِمتاهـــاتِ المُنـــى
وأنـــا شـــاعِرةٌ ذاتُ خيـــال
يَنشُـــدُ الحُســـنَ ويســـتوحي الجمـــال







رُبَّمـــــا ألفَيتُــــــــهُ في وردةٍ

في كتـــابٍ في دُعـــاءٍ في ابتهـــال

وأنـــا النجمــــةُ في أفـــقٍ ســـحيق

تَفـــتِنُ الكـــونَ بـــلألاءِ البريـــق

هـــل عَلِمـــتُم مـــن أسـاها أنَّـــني

أُرسِـــلُ النـــورَ وفي قلـــبي حَريـــق

أنـــا وهـــمٌ أنَ طيـــفٌ مـــن ســـراب

أنـــا سِـــرٌّ مُغلَـــقٌ خلـــفَ حِجـــاب

مـــلأَ الـــدَهرُ شـــبابي شَـــجَناً

فكـــأني لم أعِـــش عهـــدَ الشـــباب

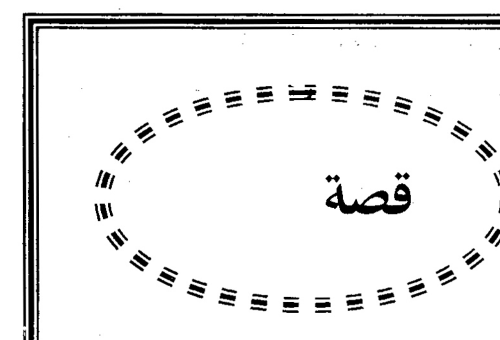
أمطـــريني أمطـــريني يـــا سَـــماء

وانظُـــريني نحـــنُ في الـــدمعِ ســـواء

وإذا شِـــــئتِ فكُفّـــــي واتركُـــــي

لِفـــؤادي ولعـــينيَّ البُكـــاء



المسافر

القصة الحائزة على المرتبة الثانية في مهرجان القصة القصيرة الأول في الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين



اتخذتُ مقعداً جانبياً بعيداً عن فرح المستقبلين وهمس المودعين، لم يرافقْني أحد لوداعي، حاولتْ "بثينة" والأولاد ذلك، لكنني رفضته بشدة.. فأنا لا أحب الوداع، ولا أحسن التصرف عند اللقاء..

لم يدم انتظاري طويلاً، حتى انطلق من مكبرات الصوت، صفيرُ نغمة محببة على مسامع المسافرين، وبصوت لا يخلو من غنج:

".. على السادة المسافرين إلى "كْيِيْفْ" التوجه إلى البوابة رقم ٣.."

وثبتُ من مكاني فرحاً كأنما الأمر لا يعني أحداً سواي.. حملتُ حقيبتي الصغيرة، واتجهتُ إلى البوابة المذكورة.. رنّتْ ساعة يدي، إنها السابعة صباحاً.

نصف نهار وأصل بلاد الثلج والخضرة كما وصفها "عامر" في رسالته:

{.. هنا يا صديقي، الأرض خضراءُ صيفاً بيضاء شتاءً.. لا يسرق الهواءُ ذرةً من تراب، والغبار مفردة يندر استخدامها في لغة هؤلاء القوم.. أسرعُ شيء تصادقه في هذه البلاد هو الطبيعة، وربما النساء أيضاً.. سيحلو لك بالرغم من البرد الشديد، السير وسط الضباب، أو تحت برادة الثلج.. ألم تقل لي إن أجمل اللحظات لديك؛ هي المشي تحت المطر؟ تعال إلى هنا، وانظر بأم العين التقاء الليل بالنهار.. لعلك في الليالي البيض، تتخاصم مع قمر النهار وشمس الليل، وتصبح شاعراً..}

وضعتُ حقيبةَ كتفي على طاولة التفتيش، أشار لي بفتحها، دس يديه فيها، قلّبَ، نقّب، رفع حملها وأسقط.. هزّها بكلتا يديه، أغلقها ثم التفت إلى حقيبة أكبر وقال تفضل. تفضلتْ إلى مسلك، حاجز، ممر.. لا أعرف تسميته بالضبط، لكنه من الواضح لا يتسع لمرور أكثر من شخص واحد!..

قطعتُ خطوة أو خطوتين.. انطلق صفير خفيف من مكان ما، أظهرتُ عدم اهتمام وأردت المتابعة، كانت يدُ المراقب أسرع من خطوتي القادمة. همس بي: لو سمحت؟ عرفتُ من حركة يده أنني مدعو لإعادة المحاولة.. نبّهني إن كنت أحمل أشياء معدنية.. مفاتيح، نقود، أي شيء!؟

تفقدتُ جيوب ثيابي فلم أجد فيها إلا رقم هاتف وعنواناً بأحرف لاتينية غريبة عني، وقبل أن أجيبه بالنفي القاطع، فطنتُ إلى قفل الحزام في بنطالي.. سللته بسهولة، وسلكت ذات المسلك لينطلق الصفير مرة أخرى كأنني كتلةٌ من حديد.. ضربتُ الأرض بقدمي وتراجعت إلى الوراء..

تحلّق حولي ثلاثة رجال، كان أوسطُهم يدلُّ عليَّ من بعيد، يتقصدني أنا لا غيري، وعندما وصل تفرسني من حذائي إلى شعري، قالت حركة رأسه اتبعني، استجابت قدماي لرأسه، فتبعته محاطاً بصاحبيه ووقع أقدام أخرى خلفي.

ذهبوا بي إلى غرفة بلا نوافذ.. وقفتُ في منتصفها كالأبله في عرس أمه، تحسس أحدُهما جسدي لمساً وعصراً.. أعطى إشارة نفي من حاجبيه وخرج!

جلس الثاني على الكرسي الوحيد وراء طاولة خشبية، تبادلنا النظر بسرعة، كان في عينيه ارتياب وعلى لساني سؤال هممتُ به فسبقتني نبرتُه الآمرة:

- اخلع ثيابك!

انتقلت الريبة من عينيه إلى رأسي، وبتُّ لا أفهم شيئاً ولا أستجيبُ لشيء.. لم ينفع معه الرجاء ولم يأبه بأمواج الدم في عيني..

طار سقف الغرفة وانهارت الجدران، وشقوق الباب ضاقت واتسعت حتى صارت عيوناً..

أعاد الطلب ثانية بأن هزَّ رأسه مرتين أنْ لا مفرُ..

بدأتْ أوراقي تتساقط عنّي واحدة تلو الأخرى، إلى أن وقفتُ بينها عوداً عارياً إلا من الورقة الأخيرة..

قال متابعاً عرض التعري ونقر أصابعه على الخشب أيقظ جدي الأول من رفاته:

- أكمل ولا تستحي!

- كيف لا أستحي؟!.. أنا أخجل من المرآة، ومن الطبيعة في الخلاء!..

ارتفع صوته كأنه لم يسمع شيئاً، ولم يرَ ارتجاف الشعر على صدري:

- "خلّصْنا" كان غيرك أشطر..

أسبلتُ يديَّ ورفعت رأسي إلى الأعلى كثيراً، ربما من أجل أن يبقَ انكساري على شرفة العينين. وصلتْ أظافره أو كادت إلى ورقتي الأخيرة، أمسكتُ يده وحدقتُ في وجهه.. كان في نظرتي الأولى بقايا تحد، وفي الثانية حرج، وفي الأخيرة رجاء.. تراجع قائلا بنفاد صبر:

- انزع ما تبقى.. نحن رجال، ومثل هذا يحدث يومياً.. لا تهتم للأمر كثيراً!

كان ثمة هدير قوي ينفذ إلى أذنيَ رغماً عني.. أتكون الطائرة التي أحمل تذكرتها تستعد الآن للإقلاع؟.. سقطتْ ورقة الصبّار عني، وبقيتْ أشواكُها تلسع لحمي.. سترتُ فضيحتي بيدي.

زفر ضحكة من أنفه:

- يبدو أنك لا تعرف المطلوب!

قلت:

– لم أعد أذكر ما قلت، لأنني لم أقل شيئاً.

قال:

– اشبك يديك خلف رقبتك وباعد بين ساقيك، اهبطْ وانهضْ ثلاث مرات..

وبنبرة الخبير تمتمَ: هل هذا صعب؟

– لا ليس صعباً.. أنا أعرف تمارين أصعب من هذا.. لكنه الآن صعب، صعبٌ جداً وأخشى السقوط.

هبطتُ ونهضتُ.. سقط حيائي مني، ولم يسقط شيءٌ آخرُ مما يبحث عنه..

تكومتُ فوق حذائي بلا حراك، قال وهو يغلق الباب وراءه:

– تَسْتَرْ يا رجل!

لبستني ثيابي.. أمشي بينهم في بهو طويل، أبحث عن عروة لزر قميصي فلا أجدها.

طلبوا مني من غير تهذيب الوقوف على حائط يرتدي "تنورة" من الرخام المزنر بالأسود، نقر كبير حراسي الباب العريض بعقلة إصبعه الوسطى عدة نقرات، سوّا من هندامه ودخل.. تسلل بصري عبر الحارسين إلى بحيرة متجمدةٍ من الإسفلت، تجثمُ عليها طائراتٌ هائلاتُ الحجم تشبه طيور الحكايا القديمة..

طارت عيناي وراء دائرةً ملونة على جناح طائرة تغادر الساحة، مططتُ رقبتي في محاولة لتقصي عَلَمَ دولتها على دفة الذيل العالية..

تذكرتُ فجأة أنني أجهل ألوان علم الدولة المسافر إليها.. فمنذ انفراط العنقود الأحمر وسقوط مطرقة الإتحاد على حدِّ المنجل، نسيتُ أنني أحتاج إلى ذاكرة جغرافية جديدة لاستيعاب أشلاء العالم الجديد..

فاجأني صوته الخانع وهو يرد الباب خلفه: حاضر سيدي، ثم التفت إلي قائلاً بصوت آمر:

– ادخلْ.

استرددتُ بصري الذي كان يلاحق بلهفةٍ عَلَمَ طائرة أخرى ودخلت..

مشيت إلى سيد المكتب، وكأن في مشيتي عرج من قميصي الذي خالفتْ عراويه أزرارها..

أفرغتُ ما في جيوبي على الطاولة أمامه، قلَّب أوراقي، وقَلَبَ شفته السفلى، ألقى من يديه أشيائي واستند إلى كرسيه الدوار يسألني عن تفاصيل عنوان صديقي وعمَّا أخفيه، لم يقتنع بحروف النفي، ولا بأدوات التعري وبراءة العنوان.. طوى جذعَه على بلّور الطاولة وقال:

– الجهاز لا يكذب..

رفعت صوتي قليلاً:

– وأنا صادق..

همس يوشوشني:

– قل لي ما هو وأنا أتدبر الأمر!

أجبتُ دون النظر إليه:

– هل أخلع لك ثيابي مرة أخرى؟

صرختْ أصابع يده بين عيني:

– أنت وقح!..

وانهال عليَّ رذاذ غضبه، وهو يضغط على زرٍ أحمرَ، مهدداً إياي بوسائله الخاصة جداً لاستخراج ما خفي مني وما ظهر!..

أحاطوني من جديد، صاح بهم:

– خذوه إلى الـ /٦٠٧/

ابتلعتْ سماعة الهاتف باقي الأوامر وأنا أُجَرُّ من تحت إبطيَّ إلى خارج مكتبه..

انضغطت بين اثنين منهم في المقعد الخلفي للسيارة البيضاء التي كنت أخافها إن

مرَّت من جانبي، انطلقت السيارة في طريق العودة، فسبقتها أفكاري إلى هذا الرقم المخيف /٦٠٧/، إن كان تحت الأرض أو في بطن جبل؟ خطر على بالي إنها حجة لمنعي من السفر إلى عامر، ثم تصورتُ نفسي في غرفة التحقيق غاطساً في كرسي بلا مقعد، يسألونني عنه فلا أجد ما أجيب به.. أتبرأ من ماضيَّ وحاضري.. أسامحهم بالمستقبل للرد على اتهامات جاهزة أو تهمة ينطق بها خوفي، ولم يخطر لي ولو للحظة أنني مساق إلى هذا المبنى العتيق المحاط بأشجار السرو والزوار..

هان الأمر عليَّ.. هنا في هذا المشفى وليس إلى مكان آخر، طَردتُ أوهام الطريق وتحولت في يد مرافقي إلى برقية مكتوبة، مرَّتْ بسرعة على آلة تخطيط القلب ومن أمام "أشعة اكس".

ولكثرة اهتمام الأطباء بتنفيذ أوامر حارسي المأمور، بدأتُ أصدِّقُ أنني مصاب بعلة وشى بها بَدَني، لا يعرفها إلا هو وصفيرُ الجهاز..

أنهى الحارس، إجراءات التحضير، بعد استفسار سريع عن نتائج الصور والتحاليل، ثم سلَّمني إلى سدنة غرفة العمليات محمولاً على نقالة الموت البطيء.. كان البواب يدفعها أمامه بسرعة، غير مبال بلحمي الممدد عليها، كأنه بائعٌ أعمى في سوق (الهال) وأنا رأس ملفوف ذابل يتدحرج على عربته.. دلقني على نقالة أخرى تحت أربع شموس معلقة، اخترقتْ أضواؤها غطائي وفضحتْ جسدي العاري. رفع كل منهم يديه أمام صدره واقتربوا نحوي صامتين ملثمين. اعتراني إحساس الذبيحة، كأنما إسماعيل أخي.. وثبتُ من مكاني أريد النجاة.. تناولوني كل من جهته، ثبَّتوا المجسات واللواقط على صدري ورأسي، حقنوا وريدي بسائل الموت المؤقت، سمعتُ صدى صفير الأجهزة يعلن عن جاهزيتها، ولأنني لا أستطيع سدَّ أذني، أغمضتُ روحي وسلمت أمري لإله الأقبية والسراديب!

لم أكن مريضاً ولا كانوا أطباء..

أعملوا سكاكينهم في جثتي الساخنة.. اغتصبوا عذرية الخلايا، واقتحموا صمت الأحشاء.. لم أستسلم كلياً لتخديرهم، بقي شيءٌ مني يحلِّق فوقي.. ولحظةَ اخترقتْ سكين الجرَّاح أول خلية، شاهدتُ الشمسَ تنفجر وتتشظى.. ورأيت الأرضَ تميل على أهلها، انتهى العالم، والقيامة قامت.. كان هذا قبل الظهر، أما وأن الشمس تغرب الآن خلف قضبان النافذة، عرفتُ بأن قيامتي أنا هي التي قامت.

صحوتُ على جروح جسدي، وعلى لغو وراء باب، انشق عن طبيب يحاور الشرطيَّ للدخول إليَّ.. انسفحتْ أمامه حزمةُ ضوء على بلاط الغرفة، لحقتْ بها نسمة باردة، سرعان ما اختبأتْ مع رائحة البنج المعتق في أنفاسي، لملمتُ أطرافي بخوف فلم تستجب ساقي اليسرى. الخوف من الأطباء شعور جديد انتابني اليومَ؛ بعد ما رأيت سكين الجراح تحز لحمي..

جس الطبيب المناوب بأصابعه الناعمة جبيني:

- أنت في حالة جيدة..
- أنا لم أكن أشكو من شيء!..

انفلتتْ منه نحو الباب التفاتة حذرة، ثم أعطاني ظهره ودار حولي.. رجوته أن يساعدَني في رفع جذعي، هزَّ رأسه وأخذ يدير شيئاً أسفل السرير..

ما إن ارتفع نصفي الأعلى قليلاً حتى رأيتُ ساقي مكبلة بحديد السرير، ضربتُ رأسي

بالوسادة، لاهثاً من جوفي المحروق سؤالاً متقطع الحروف:

- هل هذه الساق لي؟..

أسبلَ جفنيه كأنما يعتذر عن ذنب لم يقترفْه، عاين الجروحَ والضمادات في كتفيَّ وتحت ظهري..

ردَّ الغطاءَ هامساً بود لم أره اليوم من أحد سواه:

- سأعود إليك!

كرر طمأنته الأولى وهو يسير نحو الباب:

- الحالة جيدة!..

أزحتُ بصري عن ظهر الطبيب إلى بيوت العناكب في سقف الغرفة والزوايا، تساءلتُ وأصابعي الناشفةُ تجوس الجراح على جلدي الرطب، إن كانت "بثينة" ستظل فرحة بملمسه كما كانت فجر اليوم؟!..

- ماذا أقول لها حين أعود؟ أتراني أعود؟ وماذا يقول صديقي "عامر" الذي طال انتظاره في المطار الآخر؟

خرج الطبيب، وقبل أن يُغلقَ الباب وراءه، لمحتُ عن غير قصد بندقية الشرطي، ليس كلها بل ذلك الجزء الذي تنطلق الرصاصات منه.. ابتسمتُ لها ولا أدري لأي سبب من الأسباب فعلتُ ذلك!..

عصرتُ رأسي بيدي أُسكت أوجاعَه وأُبْعدُ منها شخصاً آخر لا يفارقني، اسمه على اسمي لكنه ليس مثلي، دائماً يدَّعي القوة في ضعفي والحكمة في قوتي..

غمز إلى الزناد في بندقية الشرطي المسكين، ووسوس في صدري أفعالاً لا أقدر عليها.

نفضتُ قدمي فآلم القيد ساقي، صرختُ بصوت أحسبُ الشرطي سمعه:

- أنا ما عدت أطيقك ولا أطيق هذا العالم الذي أنت منه وأنا فيه، اخرج مني، أريد أن أنام..

سحبت الغطاء على وجهي ولم أنم..

لم يمض وقت طويل حتى فُتح باب الغرفة من جديد، طلَّ وجه واحد منهم، هو ذاته من رافقني من المطار إلى غرفة العمليات.. أمر الشرطي بالذهاب إلى مشبوه آخر، ألقى عليّ التحية لأول مرة، رمى مغلف أوراقي على الوسادة، حرر ساقي من قيدها، وأخفى "كلبشات" الحديد تحت سترته، وقبل أن يغادر الغرفة رفع يده مودعاً:

- لا تؤاخذنا.. أنت حر.

رفعتُ قدمي المحررة في الهواء وأسقطتها دفعة واحدة، ارتجَّ سريري وأنا أشيح بنظري عن مغلف الأوراق إلى آثار القيد في رُسغ قدمي.

مرّ الطبيب المناوب من أمام الباب المفتوح، تراجع بجذعه ورأسه إلى الوراء قليلاً، حيَّاني هذه المرة فرحاً ببراءتي.. غاب بعض وقت، ليعود من غير فرح وفي يده كيس نايلون صغير، يلوِّحُ به ويسألني:

- اسمك يوسف؟

- نعم، يوسف عبد الودود!

قال وهو يقرِّب الكيس إلى وجهي:

- هذا ما استخرجوه منك، شظايا صغيرة لقنابل من حرب كنتَ فيها!..

انطلق صفيرٌ آخرُ من رأسي.. غالبتُ جروحي، وأنا أنزع أنبوب الماء المملح من يدي..

رميتُ هويتي وجوازَ السفر، خطفتُ كيس لآلئي من يده.. وخرجتُ من الباب عارياً..




تأملات..

شعر: علي الحبيب

لاح النـــديم فطابـــتْ لــــذةُ الســـهرِ
والـــروحُ راحـــتْ تجـوب الكـونَ في حـــذرِ
والنـــاظرانِ وقلـــبُ الصّـــبِّ شـــدّهُما
نـــورٌ عظـــيمٌ كســـا الآفـــاق بالـــدررِ
نادمْتـــهُ السِّـــحْرَ والأجفـــان يملؤهـــا
دمـــعٌ يصـــبُّ علـــى الخـــدين كـــالمطرِ
واللـــبُّ أحْـــرَمَ بالتســـبيح مُسْـــتبقاً
نُطْـــقَ اللســـانِ لآيـــاتٍ مِـــنَ الســـورِ
هيهـــاتَ أسْـــهو وذكْـــرُ الله يؤنســـني
والأفـــْقُ يـــذخرُ بـــالآلاء والصـــورِ
إنـــي مليـــكٌ ولـــي في السّـــهد مملكـــةٌ
أخْتـــالُ فيهـــا لأجْـــني طيّـــبَ الثمـــرِ
فالليـــلُ ملـــكٌ لكـــلِّ الســـائلينَ بـــهِ
إتمـــامُ فـــرضٍ يقـــود الـــنفس للظفـــرِ
أمّـــا نـــديمي فكـــم عشّـــاقه التحفـــوا
ضـــوْءَ التنـــادمِ بعـــد البـــوح بـــالنظرِ
يـــا روعـــة العشـــقِ حـــين العشـــقُ يجعلنـــا
أطْيـــارَ فجـــرٍ تغـــني للســـنا العطـــرِ
كالفُلـــك نبحـــرُ في بحـــرٍ، موانئـــهُ
نـــدنو فتنْـــأى ومـــا أحْـــلاهُ مـــن ســـفرِ

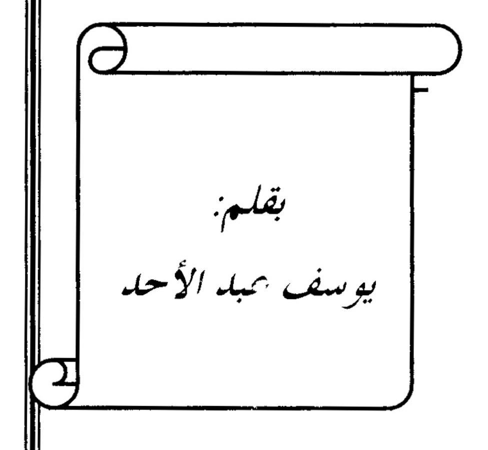



العلامة

أحمد عبيد

أمين التراث العربي

١٨٩٣ - ١٩٨٩



أحمد عبيد أديب وشاعر ومحقق وفقيه وورّاق نادر، وباحث مجدّ في التراث العربي والتاريخ، وعالم خبير في المخطوطات العربية حتى لقب (بأمين التراث العربي).

ولد بدمشق في حزيران عام ١٨٩٣ وتلقى دراسته الأولى في بعض المدارس الأهلية والرسمية لعدة سنوات، ثم انقطع عن الدراسة لأسباب قاهرة.

أسس المكتبة العربية بدمشق في جادة سوق الحميدية سنة ١٩٠٨ وكان يطبع بعض الرسائل والروايات ثم أصدر مجلة (أنفس النفائس) وتوقفت بعد تسعة أعداد.

في بداياته نشر في الصحف بعض المقالات النقدية والتي تدعو إلى الوحدة العربية، ونشر مجموعة من قصائده الحماسية لمحاربة الاستعمار وكان يوقع مقالاته بأسماء مستعارة منها (ابن رشيق) و (نزيل القاهرة).

اشترك في تأسيس النهضة المسرحية في سورية ونشر مقالات في النقد الأدبي المسرحي وكان له السبق في تنفيذ أول مشروع لإحياء التاريخ الإسلامي منذ عام ١٩٢٧ ونشر سير أبطاله وتراجم أعلامه وهو أول من أصدر التقويم (الروزنامة) باللغة العربية عام ١٩٠٨.

وافته المنية في ١٣ آذار ١٩٨٩ في دمشق وأقيم له حفل تأبين في مكتبة الأسد الوطنية يوم ١٣/ ٥/ ١٩٨٩، وقد ألقيت في الحفل كلمات الأساتذة خالد الريان عن وزارة الثقافة والدكتور شاكر الفحام عن مجمع اللغة العربية وزاهر عبيد عن آل الفقيد والأديبة السيدة قمر كيلاني عن اتحاد الكتاب العرب التي قالت في كلمتها:

"وفقيدنا المرحوم أحمد عبيد.. كان هذه الشجرة الوارفة للكلمة الطيبة التي مدّت ظلالها وطرحت ثمارها خلال قرن من الزمان مستمدة نسغها وحيويتها من الإيمان بهذه الأمة والتراث العربي ضاربة بجذورها في أرض

العروبة مستهدية بهدي القرآن الكريم طامحة بالعودة إلى أيام الألق والمجد والعنفوان".

آراء وشهادات الأدباء

١- محمد كرد علي:

"أثبت الأستاذ أحمد عبيد بما نشر من تركة السلف حتى الآن أنه سائر على الطريقة العصرية في نشر كتب الأدب والتاريخ يخدمها ويعلق عليها ويشفعها بفهارس كثيرة تفتح مخابئها وتجلي مغالقها".

٢- عيسى اسكندر المعلوف:

"اتخذ أحمد عبيد خطة جديدة في التأليف والجمع نود أن يسير عليها أدباء العصر والمؤلفون عندنا لما لها من الشأن الكبير في عالم التصنيف..".

٣- إسماعيل مروة:

"يتمتع الأستاذ عبيد بروح علمية نقادة وروح الأناة والصبر والتحمل في سبيل العلم لذلك كانت أعمال المجمع العلمي العربي توكل إليه لتنفيذها ومراجعتها وتقديراً لعلمه وجهوده قرر المجمع أن يكون عضواً فيه لكنه اعتذر..".

٤- عيسى فتوح:

"لقد أولع أحمد عبيد منذ حداثته بكتب التراث العربي وسار في هذا المضمار شوطاً واسعاً حتى أصبح عالماً فذاً في كل ما هو مخطوط ومطبوع من الكتب العربية: لغة وموضوعاً وورقاً وخطاً وتأليفاً وتحقيقاً وجمعاً وتصميماً ونقداً وطباعة وتجليداً ونشراً حتى لقب بجدارة بـ أمين التراث العربي، ونشر خمسة وثلاثين كتاباً بين تأليف وتحقيق..".

٥- هاني الخير:

"كان له السبق في تنفيذ أول مشروع لإحياء كتابة التاريخ العربي منذ عام ١٩٢٧ بنشر سير أبطاله وتراجم أعلامه كما كان لتحقيقه وإخراجه الجزءين السادس والسابع من تاريخ دمشق لابن عساكر سنة ١٩٣٠ الفضل الأكبر بتعريف الناس بهذا الأثر النفيس".

أعمال أحمد عبيد المطبوعة

١- تهذيب تاريخ ابن عساكر - للشيخ عبد القادر بدران ج ٦ و ٧ (تصحيح وتعليق).

٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين - لابن قيم الجوزية (تحقيق).

٣- ذكرى الشاعرين، شاعر النيل وأمير الشعراء (دراسات) مطبعة الترقي ١٣٥١هـ.

٤- مشاهير شعراء العصر.

٥- مختصر طبقات الحنابلة.

٦- الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب للسيوطي (تحقيق).

٧- نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسمر للسيوطي (تحقيق).

٨- في سبيل الأخلاق (مجموعة شعرية).

٩- الآية الكبرى في شرح قصة الإسراء للسيوطي (تحقيق).

١٠- الأرج في الفرج للسيوطي (تحقيق).

١١- سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي - مطبعة الترقي ١٣٥٠هـ.

١٢- طرائف الحكمة ج ١ و ٢.

١٣- فتاوي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

١٤- سيرة عمر بن عبد العزيز رواية مالك بن أنس وأصحابه (تحقيق) ١٩٦٤.

١٥- الحكم العطائية والمناجاة الإلهية - المطبعة الهاشمية دمشق.

١٦- المسائل الشرعية في الأحكام الفقهية (مدرسي).

١٧- كلمات المنفلوطي وما قيل فيه من الوصف والتأبين والرثاء (جمع).

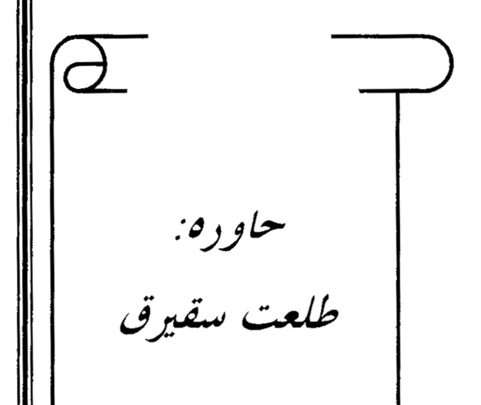
١٨- طرائف الحكمة مجموعة في الأدب والحكمة والأمثال (جزءان).

١٩- المعيد في آداب المفيد والمستفيد للعلموي (تحقيق).

لقاء مع الفنان

معتز علي

كل واحد منا يعبر عما بداخله من مشاعر إنسانية ووجدانية



معتز علي فنان متعدد المواهب متميز العطاء.. أكثر أعماله لوحات في الخط العربي ورسومات في الكاريكاتير.. يصر على تطوير عمله دون توقف، منهاجه أن تكون أعماله في كل مكان.. وأيضاً هاجسه أن تكون رسوم الكاريكاتير موظفة بشكل يخدم الجميع.. فماذا يقول في هذا الحوار..

- **الحوار مع فنان الكاريكاتير يفترض شيئاً من خصوصية الاختزال.. هل هي سمة هذا الفن؟**

** من أهم خصائص الكاريكاتير الاختزال، فهو يعتمد على السخرية والمفارقة، ويبتعد عن المباشرة والسطحية.. ولكي يكون رسام الكاريكاتير متميزاً عن غيره عليه أن يختزل ويكثف في الفكرة التي يريد إيصالها للمتلقي أو القارئ بأبسط الخطوط والأشكال وبأقل الكلمات إن كان الكاريكاتير يحمل بعض التعليق، فالكاريكاتير يغني عن قراءة مقال أو خطاب سياسي، والكاريكاتير كالنكتة فهي قليلة الكلمات، ولكنها كبيرة في المعنى والمغزى، ولها أبعاد اجتماعية وسياسية وتريد أن تقول ما بين السطور..

- **الفنان معتز علي اسم نعرفه منذ مدة.. لكن علينا دائماً أن نسأل الفنان عن مشوار عطائه.. فمن أين نبدأ وأين نقف؟**

** البداية كما هي عند معظم المبدعين من فنانين وأدباء وشعراء.. بدأت في سن مبكرة

جداً وكانت البداية مع الخط العربي.. فعندما كنت في المرحلة الابتدائية كان خطي جميلاً وهذا ما لاحظه الأساتذة والأهل والأصدقاء، وكانوا يبدون إعجابهم بخطي.. فكان هذا بمثابة التشجيع والحافز لي وكان هذا يسعدني جداً.. شيئاً فشيئاً زاد حبي لهذا الفن الجميل، وبدأت أتعلمه بنفسي من خلال بعض الكتب..

في المدرسة كنت أخط لزملائي الطلاب على دفاترهم، وفي الحي كان يستعين بي بعض الأصدقاء فكنت أخط لهم بعض اللوحات، ورسمت خطاي في هذا الاتجاه، لكن إعجابي بالفن التشكيلي بشكل عام والكاريكاتير بشكل خاص الذي كنت أتابعه في تلك الفترة في الصحف والمجلات، كان يزداد يوماً بعد يوم، على أن انطلقت الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ فكانت لي بمثابة المحرض والمحفز على ممارستي لفن الكاريكاتير، أفرغ من خلاله تلك المشاعر المختلفة من حزن وغضب وألم.. بدأت بنشر أعمالي من خلال بعض الصحف والمجلات المحلية في سورية، ثم العربية والعالمية.. وفي العام ٢٠٠١ أصدرت كتاباً ضمّ مجموعة كبيرة من أعمالي الكاريكاتيرية بعنوان "رسوم عارية".

- هذا الكتاب رسوم عارية أراد أن يقول أكثر من العنوان وحتى الصورة التي ظهرت على الغلاف.. ماذا عنه؟

** بعد نشر رسومي في العديد من الصحف والمجلات وإقامة العديد من المعارض الفنية، عملت على جمع بعض أعمالي لإصدارها في كتاب وكان ذلك عام ٢٠٠١، تناولت الهم الإنساني والحياتي وركزت على الموضوع السياسي خاصة الحدث الفلسطيني لما له من أهمية كبرى في العالم.. كما تناولت الواقع العربي المحزن الذي تتلاطمه الأمواج دون أن يكون له أي دور فاعل.ز أطلقت على الكتاب عنوان رسوم عارية بقصد تعرية الواقع السياسي الأميركي والإسرائيلي، أما بالنسبة للوحة الغلاف فهي تمثل جسد امرأة فلسطينية وقد تحول إلى سلاح تفجيري لمواجهة العدوان، فالشعب الفلسطيني لا يملك شيئاً من السلاح سوى جسده ليواجه به العدو.. الكتاب صدر في دمشق، وكتب المقدمة الفنان العالمي الأستاذ علي فرزات..

- كما قلت لي، ترسم في العديد من الصحف والمجلات.. هل يؤثر العمل الصحفي في مسار اللوحة تحت ضغط الطلب أحياناً، أم أن هناك حاجة إلى الصحافة ليظهر الكاريكاتير؟

** الكاريكاتير والصحافة متلازمان منذ القديم، ولا يمكن للكاريكاتير أن ينتشر دون الصحف، والصحافة لا يمكن أتستغني عن الكاريكاتير لأنه يعطي نقداً جمالياً محبباً يشد القارئ لكي يتابع الصحيفة أو يقرأ المقال الذي يرافقه الكاريكاتير.ز لكن أحياناً كما قلت يغير العمل الصحفي دليلاً في مسار اللوحة إذ تصبح محكوماً بالوقت وبالفكرة التي يطرحها

الموضوع وما عليك إلا أن تنجز العمل، لكن هذا لا يؤثر ولا يعتبر قناعات ومبادئ الفنان الملتزم.

- هل وصل فن الكاريكاتير عند معتز علي إلى المستوى المشبع لرغباته النفسية في تصوير وقول ما يريد؟

** لدي الكثير الذي لم أقله بعد من خلال الرسم ولم أصل إلى الآن للمستوى الذي يشبع رغباتي النفسية.. وبرأيي مهما بلغ الإنسان المبدع وتقدم في العمر يبقى لديه الكثير والكثير جداً الذي لم يستطع أن يعبر عنه أو يقوله، وأنا شخصياً لدي العشرات بل المئات من الأفكار والمواضيع الكاريكاتيرية مدونة على دفتر خاص بي وإلى الآن لم أبدأ بتنفيذها وتفريغ ما بداخلي على الورق كي تنتقل إلى لوحات كاريكاتيرية منجزة..

- طبعاً أكثر لوحاتك تأخذ الهم الفلسطيني موضوعاً لها.. هل هذه الخصوصية تقيد الفن أم تمنحه قدرة على التحليق؟

** على العكس تماماً هذه الخصوصية لا تقيدني أبداً بل تمنحني قدرة على التحليق كما تقول.. فأنا وأنت وسوانا نعلم أن القضية الفلسطينية هي قضية شائكة ومتعددة الأبعاد، وأنها قضية وطنية وعربية وإسلامية وعالمية، وأن الشعب الفلسطيني في الداخل والخارج يعاني من الويلات والانقسامات والنزاعات.. وكوني ابن هذه القضية أرى أنه من الواجب علي أن أعبر عن رأيي وموقفي تجاه هذه القضية، وهذه الخصوصية أعتز وأفتخر بها ولدي الكثير من الأفكار عن فلسطين الحبيبة لم أنجزها بعد، إضافة إلى أنني تناولت في رسومي مواضيع منها الاجتماعي والثقافي والفني..

- ما هي علاقة معتز علي بالمتلقي.. هل استطعت أن تصل إلى نقطة اللقاء مع المتلقي إلى الحد الذي تشعر فيه أنك تقيم حواراً معه؟

** كل متلقٍ وكل قارئ للوحة الكاريكاتير يقرأ ويفسر ويحلل بالقدر الذي يملكه من ثقافة وعلم.. طبعاً يختلف المتلقون من المثقف إلى الرجل البسيط، وبشكل عام هناك مفردات ورموز في لغة الفن التشكيلي والكاريكاتير يعرف معناها أغلب الناس، فمثلاً الشمس ترمز للحرية، والوردة ترمز للأمل والحب..، والمفتاح الفلسطيني يرمز للعودة إلى فلسطين.. وهكذا.. وبالنسبة لأعمالي فهي واضحة ومقروءة ومعظم الذين شاهدوا أعمالي وتابعوها فهموا وقرؤوا بسهولة وهم معجبون بهذه الأعمال ويعتبرونها تجربة متميزة..

- أحياناً أسأل لماذا أكتب الشعر؟.. هذا السؤال أوجهه على نفسي.. هل لي أن أسألك لماذا ترسم الكاريكاتير؟

** أنت تكتب الشعر، وأنا أرسم، وهذا يعزف الموسيقى،وذاك يكتب القصة، وجميع هذه الأجناس إبداعية فنية، وكل واحد منا يعبر عما بداخله من مشاعر إنسانية ووجدانية.. أنا

أرسم لكي أشعر بوجودي وذاتي ولكي أعبر عما يختلج في نفسي، ولكي أقول وجهة نظري.. عندما أرسم أشعر بالفرح والسعادة لأن الفن هو البوصلة التي تحدد مسار الجماهير وترتقي بهم، الفن حضارة وثقافة وتاريخ يحدد هوية الشعوب ويتميز كل شعب عن غيره بالفن. الذي يرسمه وله تأثير كبير، وكثيرة هي ضحايا هذا الفن ومن أجله أحياناً تقام الحروب وغيرها، وهذا ما أكدت عليه مؤخراً الرسوم الكاريكاتيرية الدانمركية المسيئة للرسول التي نشرتها الصحف والمجلات، وعلى إثرها قامت الدنيا ولم تقعد..

- معروف أن الكاريكاتير يبحث عن إثارة الضحك أو الابتسامة الهادفين من خلال التضخيم.. لكن أجد الكثير من الحزن في لوحاتك لماذا؟

** يظن المتلقي للوهلة الأولى إن المبالغة أو التضخيم في الكاريكاتير قد وجد من أجل الإضحاك أو الابتسام.. لكن هذا الأسلوب في الرسم وجد من أجل لفت النظر وشد انتباه القارئ ليتابع لوحة الكاريكاتير.. فالضحك هو وسيلة وليس هدفاً... إن وطننا العربي مليء بالمشاكل والمآسي والهموم والمجازر.. فمن غير المعقول أن تعبر عن هذه المشاكل أو أن ترسم عن مجزرة وأنت تضحك.. نحن- الشعب العربي- لا نعرف شيئاً اسمه الفرح أو الضحك، وهناك جملة شهيرة أزلية تاريخية نرددها بعد كل ضحكة كبيرة وهي "الله يعطينا خير هالضحكة".. وكأن الضحك جريمة نقترفها.. والكاريكاتير الذي نرسمه ليس للتهريج أو التسلية، وإنما هو فن هادف قوامه السخرية المرة، المؤلمة، الناقدة "وشر البلية ما يضحك".

- ماذا على الفنان والمبدع والكاتب الفلسطيني أن يقول في هذه المرحلة تحديداً؟

** في هذه المرحلة لابد من تضامن عربي واحد، انطلاقاً من مبدأ في الاتحاد قوة.. نحن نعيش مرحلة الاضطرابات في منطقة الشرق الأوسط لذلك لابد من دور شامل وكامل للجميع، فالمسؤولية تقع علينا جميعاً ولابد من كشف الواقع المزيف حتى يسير بنا المركب على شاطئ الأمان، كما نعيش الآن مرحلة كفاح ضد الافتراءات والمشاريع الخطيرة التي تحاك ضد المنطقة العربية..

- ماذا تقول عن فن الكاريكاتير الفلسطيني بشكل عام؟

** عالج الكاريكاتير الفلسطيني الواقع والظروف المعيشية القاسية التي يعاني منها المواطن العربي، وتناول عوامل الكبت والقهر الاجتماعي والسياسي والثقافي والفكري.. والكاريكاتير الفلسطيني ركز بشكل أساسي على مسيرة كفاح الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة واشتباكه مع العدو الصهيوني وعلى مواقفه السياسية وتصويره للحالة الفلسطينية الجماهيرية المقاومة، كما أكد على حضوره الإعلامي في الصحف المحلية والعربية

والعالمية ودليلنا الأكبر على ذلك رسام الكاريكاتير الفلسطيني الشهيد ناجي العلي والذي سقط شهيداً من أجل دفاعه عن القيم السياسية والنضالية والإبداعية ومن أجل حرية الإبداع والرأي والدفاع عن الجمال ضد القمع والرجعية.

- هل يشكل الكاريكاتير صرخة قد تتجاوز حد المعقول، أم أنه يبقى حبيس قمقم واقع عملي مأزوم؟

** الكاريكاتير صرخة قد تتجاوز حد المعقول باعتباره رسالة إنسانية تعبر عما يختلج في نفس المواطن العربي وبالتالي فهو لغة عالمية، فالمعاناة الإنسانية أو الاجتماعية مشتركة بين جميع البشر كالظلم مثلاً أو التمييز العنصري الممارس في الشرق والغرب فهو صرخة إنسانية قبل كل شيء.

- ما هي طموحات الفنان معتز علي؟

** الفنان طموحه كبير ولا يقف عند حد معين.. طموحي أن تصل رسالتي الفنية إلى القارئ بالشكل الصحيح، وأن أقدم دائماً أعمالاً يرضى عنها الناس، وأقدم دائماً الجديد والمتميز، وأن أعمل بشكل دائم ومستمر.

- ماذا عن أعمالك الراهنة ومشاريعك المستقبلية؟

** حالياً أرسم الكاريكاتير في الصحف والمجلات المحلية والعربية، كما أنني أعمل في مجال الخط العربي وتنفيذ اللوحات الفنية التشكيلية، وأحضر للعديد من المعارض الفنية الفردية والجماعية داخل سوريا وخارجها، وأحضر لإصدار كتاب جديد يضم عدداً من أعمالي الفنية الكاريكاتيرية.

بطاقة:

- *معتز عمر علي، فلسطيني من قضاء صفد.*
- *عضو الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين- فرع سوريا.*
- *عضو الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين- فرع سوريا.*
- *عضو لجنة البحوث والدراسات والنقد في اتحاد الصحفيين.*
- *عضو مؤسس في منتدى فلسطين الثقافي.*
- *عضو رابطة المسبار للإبداع العربي.*
- *أصدر عام ٢٠٠١ كتاب رسوم عارية ضم العديد من أعماله الفنية.*
- *أقام العديد من المعارض الفردية.*
- *شارك في العديد من المعارض الجماعية.*
- *حاصل على عدة جوائز محلية وعربية ودولية.*
- *يعمل في مجال الفن التشكيلي والخط العربي وكتابة المقالة الصحفية.*
- *يرسم الكاريكاتير في الصحف السورية والعربية والعالمية.*




رحلة الحلم..

شعر: خالد بدور

رَحَلــــتُ إلى مجاهــــلَ أبتَغيهـــا
لِنُعْمـــى العـــيشِ والمـــالِ الـــوفيرِ
تأبَّطْـــتُ الهمـــومَ بكـــلِّ عَـــزْمٍ
وودَّعْـــتُ الحبيـــبَ علـــى المســـيرِ
لِنَضْـــمَنَ في الحيـــاةِ رغيـــدَ عـــيشٍ
ونَـــنْعَمَ بعـــد ذلـــكَ بالسُّـــرورِ
فَعـــيشُ المـــرءِ في زمـــنٍ مَقيـــتٍ
بـــدونِ المـــالِ يـــأتي بالشُّـــرورِ
وأَدْركْـــتُ المواجـــعَ في التَّنـــائي
وأنَ الحُـــبَّ يَسْـــري في الصُّـــدُورِ
فمـــا لِلْعُمـــرِ طَعْـــمٌ مُسْتَســـاغٌ
بغـــيرِ الـــودِّ في الـــزَّمنِ العَســـيرِ
وأفْنَيْـــتُ الغِيـــابَ بِكُـــلِّ جَـــدٍّ .
لأَكْســـبَ مـــا أُرِيـــحُ بـــه ضَـــميري
ومَـــا أنْ نِلْـــتُ مَـــا أَبْغـــي لِعَـــيشٍ
يُـــريحُ العُمْـــرَ مِـــنْ فَقْـــرٍ خَطـــيرِ
طَوَيْـــتُ جَنَـــاحَ أَسْـــفَاري بِشـــوقٍ
وعُـــدْتُ بِروعـــةِ الأمـــلِ النَّضـــيرِ






لأَلْتَقــي الأحِبَّــةَ بَعْــدَ بُعْــدٍ
يُعيــدُ نَقَــاوةَ الشَّــوقِ الغَزيــرِ
أحاســيسُ كَضَــوْعِ الــوردِ تَصْحُو
علــى نغــمِ المــوَدَّةِ والحُبُــورِ
وتَجْتَــاحُ القلــوبَ بــلا تَــرَوٍّ
ويَنْــبَلِجُ الشُّــعورُ مِــنَ الشُّــعورِ
وتَنْسَــابُ العَواطِــفُ مِثْــلَ طَيــفٍ
يُرَفْــرِفُ كــالْفَرَاشِ علــى الزُّهُــورِ
وتَغْمــرُ كُــلَّ إنســانٍ تلظَّــى
بنــارِ البُعــدِ والحُــبِّ المطــيرِ
كنَبْــعِ المــاءِ يــروي كــلَّ ظــامٍ
يُعــاني حُرقَــةَ الظَّمــأِ المريــرِ
وتَنْــأى غُرْبَــةٌ كانــتْ جُزافــاً
تُحــرِّكُ ثــورةَ الشَّــوقِ الكـبيرِ
ومــا أن عُــدتُ مُشــتاقاً لحُــبٍّ
تَجَــذَّرَ في الفُــؤادِ بــلا فُتُــورِ
وقــد كــانَ الإيــابُ عَلَــيَّ صَــعباً
لأنَّ حبيــبتي اقترنَــتْ بغَيْــري
ولَمَّــا يَبْــقَ مِــنْ حُلُــمٍ لِنَفْسِــي
يُحَــرِّكُ خــاطري عَبْــرَ الــدُّهُورِ
فَقــدْ قَــرَّرْتُ أنْ أبقــى كَنَسْــرٍ
يُحَلِّــقُ في السَّــماءِ مــعَ النُّسُــورِ







البابا

يوحنا بولس الثاني

شاعراً [1]

بقلم:
جمانة طه

عندما عدَّ أرسطو الشعر واحداً من الفنون الجميلة، لم يدر في خاطره أن يكون الشعر واحداً من طقوس العبادة.

إذ ليس غريباً أن يكون الشعر فناً جميلا يستلهم العمارة والبنيان، وليس غريباً أيضا أن يكون مدخلاً إلى الروح الشفيفة، إنما من المدهش حقاً أن يكون الشعر ترتيلة صلاة ترفعنا إلى مستوى إنسانيتنا وتقربنا من الله.

هكذا هي أشعار قداسة الباب يوحنا بولس الثاني التي صدرت عن أحاسيس نبتت في فضاء شعري متوحد مع الإيمان والإنسانية.

فإذا كان تاريخ الإنسان يبحث فقط في جسد الأشياء، وإذا كانت الأشياء لا تموت موتا شخصياً، فإن الكثير من الإنسان يموت في الأشياء. فالأشياء، كما يراها قداسته، لا تقوى على الحفاظ على ما هو إنساني.. لكن الإنسان قادر على ذلك، فيما إذا حافظ على الإنسانية التي خصّه الله بها.

في قصيدة عنوانها (مخاطبة تبدأ مع الإنسان) يقول قداسته:

الحياة تنبض.. والدماء تنز بداخلها
عد إلى أي مكان رقد فيه إنسان ما..
ثم عد إلى المكان الذي ولد فيه..
الماضي، هو وقت الولادة.. لا وقت الموت

ترتكز أفكار الديوان على ثلاثة محاور، وهي: الإنسان والحياة والعمل.

فالشاعر حين كان شاباً، وقبل أن يصبح رأس الكنيسة الكاثوليكية في العالم، عمل في مقلع للحجارة، لذا ليس غريبا أن تؤرقه أحوال العمال، وظروفهم القاسية، وأن يشغله الفساد الذي يغمر العالم، ويغرقه في

(١) ترجمة: نويل عبد الأحد.

لجة المادية، ويخرب نفوس البشر، ويجردهم من إنسانيتهم.

ولأن الشعر هو انتصار للحياة، وملاذ للنفس المتصدعة، يدعونا قداسته في قصيدة (مقلع الحجارة) لنتعرف إلى المادة الصلبة عن طريق الإصغاء إلى وقع المطرقة وصوت التيار الكهربائي الذي يشق قلب الصخر، فيقول:

إصغ..
مجرد القرع بالمطارق..
يشبههم كثيراً

* * *

استمع الآن:
التيار الكهربائي.. يخترق أحشاء نهر من الصخر
وهنا تكمن عظمة العمل في الإنسان

* * *

انظر.. كيف يقتات الحبّ على هذه الأرض الصلبة
وكيف ينساب إلى أنفاس الناس..
كما النهر.. حين تحنيه الرياح..
فلا يُسمع له صوت..
بل يمضي في كسر الأوتار ذي النغمات المرتفعة

* * *

وعن العامل، يقول:
قاسية يه ومتصدعة..
مشحونة بالمطرقة
العضلات ترسم أسلوبها الخاص..
والأفكار تنبئ عن أفعالها
جبهته معقودة بالتجاعيد..
الأكتاف مقنطرة
وكذلك العروق
إنه ليس مجرد شكل
بل هو إنسان يقف ما بين الله والحجر

هذا هو البابا الشاعر الإنسان، الذي ينتقي أفكاره من حياة البسطاء ومن طبيعة الأعمال التي يمارسونها، ثم يشكّلها قصائد تشع بصدق اليقين، وتحيا بحلم الوصول إلى عيش أفضل.

في قصيدة (عامل في مصنع الأسلحة) يروي لنا قداسته قصة هذا العامل البسيط الذي يعاني من صراع دائر في أعماقه، بين الالتزام بعمله وتنفيذ أوامر صاحب المصنع، وبين مشاعره الإنسانية التي تدعوه إلى التوقف عن إنتاج السلاح المدمر للبشرية.

ولكن أنى لهذا العاملِ البسيط أن يتوقف، وهو لا يملك قوة ولا مالاً؟!

يقول الشاعر بلسان العامل:

لا أقوى على التأثير بمصير العالم..
أأنا البادئ بالحروب؟
أنّى لي أن أعرف، إن كنت مع أو ضد؟
لا لست أنا الجاني..
يساورني القلق أني لا أستطيع التأثير
لست أنا من يقترف الآثام..
إني فقط أدير مواقع البراغي..
ثم أنجز لحام أجزاء آلات التدمير

* * *

إن ما أصنعه هو خطأ
لكن ليست كل شرور العالم من فعلي
أيكون هذا الاعتراف كافياً لتبرئتي؟

وفي قصيدة تحمل عنوان (في ذكرى عامل زميل)، يقول:

عضلاته نبتت في لحم الجماهير،

تغذي نبضهم بالطاقة
مادام يقبض على المطارق،
مادامت قدماه تلامس الأرض،
مادامت الحجارة..
تهشم وجهه، وتخترق صميم كبده.

في النصوص التي بين أيدينا، نلحظ تماهي ذات الشاعر مع الذات الإنسانية الشاملة، حتى يكاد لا يظهر فيها غير صوت الإنسان الذي هو صوت الله والحق والحرية.
من قصيدة (يوحنا يتضرع إليها)، نقرأ:

لا تخفضي موجة قلبي يا أماه..
فهي تعلو أمام ناظريك..
لا تغيِّري مجرى المحبة..
دعي الموجة تدانيني
عبر يديك الحنونتين.

لقد رأى البابا الحياة بنور الله، فكان الشعر وسيلة يظهر بواسطتها الظلم الذي يحيق بالإنسان. فإذا كان الفكر ينظر ويحلل، فإن الشعر هو الروح التي تصل إلى قلب الحياة وتعانق أسرارها.
يقول قداسته في قصيدة (الزنجي):

يا أخي العزيز..
أحس وكأنك أرض شاسعة..
أنهارها نضبت..
والشمس تحرق الأبدان..
مثلما تصهر النار خام المعادن

* * *

أشعر أن فكرك هو فكري
فسيان عندي..
إن هم أمالوا كفة الميزان..
ففي كفتيه: تكمن الحقيقة.. ويكمن الضلال..

إن رهافة الإحساس عند الباب الشاعر، تتبدى في براعته على التقاط أدق التفاصيل من الحياة، وتجسيدها مواقف شعرية. فقد أهتم في أشعاره بكل ما هو إنساني، سواء تحدثت هذه الأشعار عن الطبيعة، أم عن المرأة التي ينحاز إليها، لأنها في رأيه أمّ جميع المخلوقات البشرية. أو عن الطفل والمفكر، والفتاة التي خذلها الحب. وعن الرجل الأعمى الذي خذلته عيناه، مثلما خذلت الرجل الزنجي بشرته.
في إحدى قصائده يعيدنا قداسته أطفالا نتدحرج على رمل الشط، ونشبك أيدينا شجرة في ضوء القمر، فيقول:

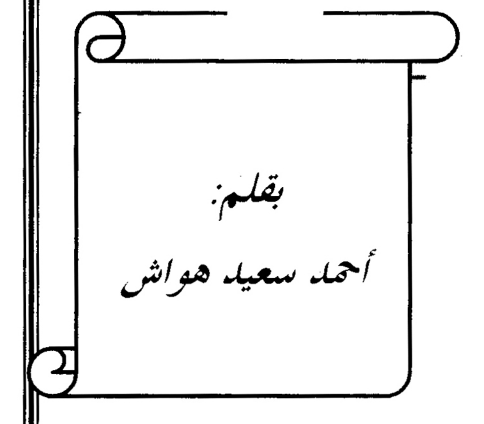
ينمون، من غير وعي، عبر الحب..
فجأة ينمون..
يدا بيد يتجولون بين الجموع
تسقط قلوبهم كما العصافير في الشراك
نبض الحياة يضرب في قلوبهم..
على الشط..
بمحاذاة النهر، تتشابك أيديهم..
شجرة في ضوء القمر

هذا هو البابا الشاعر، البابا الإنسان الذي أطلق أشعاره واضحة كفكره، صادقة كقلبه، صلبة كالحجارة التي عايشها.
ترى هل كان قداسته شاعراً، قبل أن يكون رجل دين؟ أم أنه شاعر، لكونه رجل دين؟
وإذا كانت السماء فضاء متسعاً ممتداً ومستمراً، فإن أشعار قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، هي أيضاً فضاء إنساني لا حدود له. تزينها لغة صوفية، ويوشيها إيمان راسخ بالحب وبالإنسان. أوَ ليس الماء من لون الإناء؟

نهلة محمد الحمصي

المربية الباحثة

في الذكرى الثانية لرحيلها


بقلم:
أحمد سعيد هواش

نهلة محمد الحمصي مربية، أديبة، باحثة سورية رصينة، ولدت في دمشق عام ١٩٣٠ في بيئة محافظة على القيم التربوية والوطنية، تلقت علومها بمدارس دمشق، ونالت إجازة في الآداب عام ١٩٥٣، ودبلوم في التربية عام ١٩٥٤ في الجامعة السورية - كلية الآداب، وشهادة في البحث التربوي من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٨٤.

عملت المربية نهلة محمد الحمصي مدرسة للغة العربية وآدابها في ثانويات دمشق ودار المعلمات من عام ١٩٥٤ - ١٩٧٣، وتخرجت على يديها عشرات الأفواج من الفتيات السوريات والعربيات اللواتي تلقين علوم اللغة العربية مع التربية الوطنية والقومية، ومن ثم عملت باحثة في وزارة التربية - مديرية البحوث التربوية - من عام ١٩٧٣ - ١٩٨٥، وبعدها اختارتها الموسوعة العربية في دمشق محررة ممتازة، ثم خبيرة من عام ١٩٨٥ - ٢٠٠٠، وقد أنجزت ما يزيد عن السبعين بحثاً دونت باسمها في الموسوعة العربية - قسم الحضارة، نذكر بعضها:

ابن الأبّار، حافظ إبراهيم، أروى الصليحية، أبو الأسود الدؤلي، البراء بن عازب، بلال بن رباح، عبد الرزاق البيطار، عزيز أباظة، الأرقم بن أبي الأرقم، بديع الزمان الهمذاني، بشر الحافي، أبو تمام، عائشة التيمورية، ابن حزم، أسامة بن منقذ، أسماء بنت أبي بكر، الأصمعي، عبد العزيز البشري، محمود بيرم التونسي، حمزة بن عبد المطلب، وغيرهم.. وأخيراً دراسة مطولة عن

الموسوعة الميسرة، كما أنها قامت بتصحيح وتسوية أكثر من مئة بحث قُدِّمَ للموسوعة العربية.

تزوجت المربية نهلة محمد الحمصي من الحقوقي الشاعر السوري عبد الرحمن الخزندار، وقد قامت بإعداد دراسة أدبية عن شعره تجلت فيها الموهبة والإبداع عند الباحثة نهلة الحمصي لجانب الوفاء للزوج الشاعر، كما انعكس في إنتاجهما معاً الأدبي والشعري الحب الأسري المتمثل بالأنجال والأحفاد وخاصة في شعر الشاعر عبد الرحمن الخزندار.

توفيت المربية الأديبة نهلة محمد الحمصي في أيار عام ٢٠٠٦ بعد رحلة طويلة من الكفاح والمثابرة على العمل والكتابة بالرغم مما عانته من أمراض عضال وخدمة مضنية لزوجها المريض لسنوات عديدة.

لقد تنوع الإنتاج الفكري للمربية الأديبة نهلة محمد الحمصي مما يدل على اطلاعها الواسع والعميق للتراث العربي، وتقمص دقيق لما أصدرتها دور النشر في الوطن العربي منذ أكثر من نصف قرن مضى وكان من حصيلته:

دراسات أدبية وتربوية، قصص من التراث العربي للكبار والصغار، قصص أدبية قصيرة، ومجموعة قصص للأطفال، دراسات أدبية مع ترجمات لأعلام من التراث العربي، بالإضافة لدراسة مستفيضة عن شعر رفيق دربها الشاعر عبد الرحمن الخزندار.

وقد قامت بإعداد دراسات أدبية نشرت في الدوريات السورية والسعودية والليبية منها:

الصنعة والتصنيع في الأدب العربي الحديث، اللون في الأدب الحديث، المدينة في الشعر، غنّوا يا أطفال مع سليمان العيسى.

بالإضافة لبحوث تربوية، نشر معظمها في مجلتي صوت المعلمين، والمعلم العربي في سورية من أهمها:

التوجه المهني للطلاب، قدسية التعليم وعزوف الشباب عنه، التعليم من أجل المستقبل، التربية غير النظامية (أو تعلم الكبار): واقعها، مشكلاتها، وآفاقها، مستوى اللغة العربية في نهاية المرحلة الابتدائية وهي دراسة نظرية وميدانية معاً، نشرت في مجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٨٣.

هذا إلى جانب بحوث قدمت للمنظمة التونسي للأسرة ذات موضوعات اجتماعية من أهمها:

دور الأسرة في توجيه الشباب، دور الأسرة في السلام..

وقد أثرتْ الأديبة المربية نهلة محمد الحمصي المكتبة العربية بمجموعة متنوعة من الإصدارات القيمة والمفيدة، نذكر منها إصداراتها من الكتب والقصص المنشورة بإشراف دار البشائر للطباعة والنشر في دمشق على طبعها ونشرها:

١ - قصص من التراث:

- أبطال بين الحقيقة والخيال، نشرت عام ١٩٩٩م.

- رجال وأدباء، أبطال ورحالة، نشرت عام ١٩٩٩م.

- وهنا كان العرب أيضاً، نشرت عام ٢٠٠٦م.

٢- قصص قصيرة:

- خصلة شعر أشقر، نشرت عام ٢٠٠٦م.

٣- مجموعة قصص للأطفال:

- سلسلة المحبة والفرح للأطفال من بين ٧ - ١٠ سنوات، نشرت عام ١٩٨٩م، منها:

* زائر من المريخ، قصة.

* من الخيال العلمي، نشرت عام ٢٠٠٧م.

٤- دراسات أدبية:

- شاعر الحب، دراسة لشعر عبد الرحمن الخزندار، نشر وتوزيع خاص تم بعد رحيل الكاتبة.

كما أن للباحثة المربية الأديبة نهلة محمد الحمصي مخطوطات منها:

- الكتب والقصص المنجزة غير المطبوعة:

١- دراسات أدبية: موسوعات وموسوعيون.

٢- دراسات تربوية: قضايا تربوية (كتاب في جزأين).

٣- قصص قصيرة:

* خواطر من الحياة والعمل: مجموعة قصص قصيرة واقعية من الحياة عاشتها الكاتبة.

* الكتاب الملعون.

وكانت المربية الأديبة نهلة محمد الحمصي قد بدأت بكتابة مذكراتها والتي أرادت من خلالها نقل واقع الحياة في الأسر المتوسطة في دمشق خلال فترة الاحتلال الفرنسي على سورية، ثم في عهد الاستقلال وظهور الحركات التحررية العربية، ومتابعة تطور حياة المرأة السورية وتحررها في تلك الفترة التي عاشتها الكاتبة من دخولها الجامعة وميادين العمل والمشاركة في النشاطات الأدبية والثقافية المختلفة، ولكن العمل والمشاركة في النشاطات الأدبية والثقافية المختلفة، ولكن يد المنون عاجلتها، ولم تتمكن من إنهائها أو نشرها.

نظرة في بعض إبداعات نهلة الحمصي:

١- من التراث: رجال وأدباء وأبطال ورحالة (دراسة):

وقد تضمنت الدراسة الموضوعات التالية:

كان مهرها إسلام زوجها - غيلان بن ساعة - الحارث بن خالد المخزومي - الأبيوردي - حديث ابن جبير - حديث مع الخالديين: الأخوين الشاعرين - أحمد بن يوسف الكاتب العباسي كاتب المأمون - الأصمعي - عبد الملك بن قريب، دروب الحقيقة - محمد بن يسير الرياضي - الخطاط ابن البواب - علي بن هلال - الصديقان اللدودان: لسان الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون - المهلهل: عدي بن ربيعة - الأخوة الأودي - جُحا.

وقد استهلت الباحثة دراستها هذه بمقدمة موجزة قالت فيها:

"اخترت من كتب الأدب والتاريخ القديمة أنموذجات لأشخاص عاشوا في عصور شتى امتدت من أيام الجاهلية حتى عصرنا، ومن بيئات مختلفة: جاهلية وإسلامية عباسية وأندلسية.. اتصفت هذه الشخصيات بأحوالها غير العادية وتصرفاتها المتميزة التي يجد فيها القارئ ما يرغبه في تقليدها أو يذهب الملل والسآمة عن نفسه.. وأكثر هذه الأنموذجات مستوحى من كتب الأدب، وما ذلك إلاّ لأن ما يختص به الإنسان لا يقدر أن يخرج من فلكه إلاّ قليلاً.."

٢- من التراث - أبطال بين الحقيقة والخيال (دراسة):

وقد تضمنت الدراسة الموضوعات التالية:

المقدمة.

- عنترة بن شداد: أيام العرب - حرب داحس والغبراء - عنترة الشاعر والبطل - سيرة عنترة بن شداد الشعبية.

- عبد الله البطَّال: حياة عبد الله البطَّال - البطَّال الأسطورة - البطل الأسطوري في قصة ذات المهمَّة - البطَّال في السيرة الشعبية الذكية.

- سيدي أحمد البدوي: حياة البدوي - خلفاء السيد البدوي - شخصية البدوي بعد موته - حكاية البدوي مع فاطمة بنت برِّي.

وقد افتتحت الباحثة كتابها بقول لـ (كاريل) من كتابه الأبطال:

"إنَّ العظيم في كل العصور كان منقذاً لا غنى عنه لعصره، فهو أشبه بالشرارة، وبغيره ما كان الوقود ليتقد..".

ومما قالته في المقدمة:

"ومن هؤلاء الرجال الأبطال، ومن مواقفهم التي لاذ بها الوجدان العربي ليجد القوة، كانت السيرة الشعبية التي أنتجها الخيال العربي على مرِّ عصوره، فكانت سيرة عنترة بن شداد، وذات الهمة، والسيرة الهلالية، وسيف بن ذي يزن، والظاهر بيبرس وغيرهم كثير، وبعض القصص الشعبية بعضها معروف وبعضها مازالت تنتظر من يخرجها إلى النور من مخطوطاتها..".

وفي كلتا الدراستين دلالة على براعة ودراسة متعمقة للتراث العربي بعامة والسيرة الشعبية بخاصة تجلت في هاتين الدراستين القيمتين للراحلة الأديبة نهلة محمد الحمصي..

هذا لجانب دراستها الأدبية لشعر زوجها الراحل عبد الرحمن الخزندار، وإصداراتها المتنوعة من قصص للأطفال وتبحرها في مجال اختصاصها التربوي، وفي نشاطها البارز في الموسوعة العربية، الذي لازال يلهج به كل من عرفها من الزميلات في مجال عملها المتنوع؛ والذي التمسته أثناء زياراتي لمنزل زوجها الشاعر عبد الرحمن الخزندار والحديث معهما في الموضوعات التي تم ذكرها..

وبمناسبة مرور عامين على رحيلها أرسل لروحها الطاهرة الدعاء بأن يندى الله تعالى تربتها، وأن يسكنها فسيح جنانه.




حكايتي
في بلدة الغار والسنديان

شعر: مصعب عدنان إسماعيل

كنت في بكّراما. أواخر قرنٍ وألفية. وبداية قرنٍ وألفية. قلت: أصطاد نجيمات من التي فوقها أزين بها حياتي للمناسبة الجديدة، ففوق بكّراما دائماً نجومٌ وقمرٌ أزهر؛ وبين يديها يجري الماء في الوادي الأخضر..

الريح الشرقية تدمدم هنا وهنا، وفي كل مكان. وكلما صعدت في السفح كانت السماء تقترب أكثر. أصبحت المسافة بينها وبين منكبي لا تزيد عن طول ساعدي. قلت أمدُ يدي. أقطف نجمة. نجمتين. ثلاث نجمات. واحدة لأمي، والأخرى لوطني، والثالثة لأطفال العالم. وفي اللحظة التي كانت فيها أناملي غارقة في بساط السماء الأزرق خلف جذور نجمة تحاول اقتلاعها جاء صوت صبية. يسخر. يعظ. يتحدى؟ لا أدري. إنما كان فيه السخرية والوعظ والتحدي بآن معاً.

قال الصوت: نجوم بكّراما كحمامٍ.. صيدهنَّ حرام.

كنت فارغاً إلاّ من تخيلات ملتاث. ككهف ليس فيه شيء سوى الهواء الفاسد. لم تكن السخرية ولا الوعظ ولا التحدي يهمني في شيء آنذاك. نزعت كي من بطن السماء المبقور. اهتزت النجمة نائسة عدة مرات ثم هدأت، وعادت ترسل الضياء من جديد. الصبية منتصبة فوق الصخرة. تعلوني بطول قامتي، والريح الشرقية تزمجر في وادي بكّراما. إنها تضرب وجوه الأشجار وفستان الصبية.

هكذا بدأت الحكاية. ولن تنتهي ما بقي صيادون على وجه هذه الأرض. وما بقي لبكّراما نجومها وواديها والرياح الشرقية الصافرة.

مـــالي؟! ومـــا للمـــوتِ يغـــزو دمـــي
وإنّـــني أنهـــل مـــن حانهـــا؟!
الله يـــدري وشـــهيّ الجنـــى
يبهرنـــي مـــا خنـــت بســـتانها







لكـــــنّ قلـــــبي عبقـــــريّ الهـــــوى
يهـــــيم مزدانـــــاً بنيرانهـــــا

أجفانهـــا مـــن النخيـــل غابـــة
أضـــيع هيمـــان بأجفانهـــا

وأعشـــق الضّـــياع أحيـــا بـــه
ومـــا رشـــفت العمـــرَ غـــدرانها

منـــازل الأحبـــاب دنيـــا ســـنا
فكيـــف لـــي؟! كيـــف بغشـــيانها؟!

أحـــارسٌ مـــن اغـــترابٍ أنـــا
ووحشـــةٍ يحـــرس أفنانهـــا

إن طـــاف وهمـــي حولهـــا صـــدّه
كأنّـــه الكفـــر بإيمانهـــا

يـــا قلـــب تشـــكو - كيـــف - طغيانهـــا
ولـــذّة الأنثـــى بطغيانهـــا

فســـتانها الجنـــة عطـــراً صَـــبا
وقِصّـــةُ الزمـــان فســـتانها

تهـــلّ فالشـــعر رؤى مـــن شـــذا
ومـــن لطيـــف النـــور ألحانهـــا

تهلّـــل الروضـــة إذ أقبلـــت
وتـــنحني تســـجد أغصـــانها




"قراءة أدبية"

أبجدية طلعت..

نقش على جدران العمر

حنين لفلسطين

وشوق للحبيبة

وبوح وجداني هادر

بقلم:
عبد الكريم السعدي

في هذه المجموعة أطلق طلعت سقيرق صرخة مدوية في ديوانه "نقوش على جدران العمر" وكأنه يستجمع كل قدراته وإبداعاته دفعةً واحدة لتؤدي الغرض أمام كل الفضاء الأدبي والشعري، خاصة وهو يرسم على غلاف ديوانه هذا، لوحة مختلفة، كذلك ليكون المشهد منسجماً معاً، في كل جزئياته وأبعاده، والاختلاف في هذا الأمر والمشهد شيء اعتاده طلعت سقيرق في العديد من إبداعاته وإصداراته ليرسم على مساحة الأفق أهداب روحه المعطرة بقصائده المفعمة بالعشق والنارنج والياسمين والنرجسْ فقد عشته طويلاً وقرأته زمناً.

فالشاعر مسكون بحبه وخلاياه تتنفس من رحيق عواطفه وتطلعاته. وجمله الشعرية تقول دائماً:

ها أنا أحلق في كل حال نحو السحاب فلا تنظروا إلى الأرض فقط، فالسماء عالم التطلع ولوحات الشعراء والمبدعين، ولأنني أدرك أن طلعت سقيرق قلق دائماً يبحث عن شيء مهم ومختلف فقد عرفته واحداً من أولئك الذين ينشدون الإبداع في كل حالاته كما يحب أن يضع بصمته لا على هامش الحياة بل على طلعتها ومبسمها، ولئن فعل ذلك، فهو يغرد كالعصفور، والبلبل لا ليسعد نفسه ويمتعها بل ليبهج من حوله في فضائه الكوني شأن الطير في روضة الجمال، فهو جزء منها يُكمّلها كما تكمّله ويسعدها كما تسعده، فالقلق عند

الشاعر، هو إحساس بجمالية الأشياء، وإعادة صياغتها بقصائده الملونة، وهذه المرة خاصة بلون البنفسج الخفيف، كما يقول غلاف الديوان، فقد حوت حديقته الشعرية معظم ألوان الزهور وباقاتها المرونقة، قرأت لوحة غلاف ديوانه الذي أهدانيه مؤخراً أكثر من التأمل فيه فوجدتني أسبح في كتابته المبهجة لأستشف، أنه يشي بالأصالة والعراقة والتاريخ الأبجدي للإنسان الفلسطيني الذي بنى الحضارة في عالم سحري زمناً طويلاً، وأنجب أجيالاً خلاقة مبدعة، أبدعت فيما بعد فلسطين والعالم الأخر الذي جعلها مطمعاً مستساغاً لنهم الغرب ومحط أنظار الصهيونية العالمية فكانت فلسطين الذبيحة، وكنا داخل أسياجها وخارجه وتجزأ الشعب ما بين عرب الداخل وعرب الضفة والقطاع وعرب الشتات في كل أصقاع العالم.

تلك هي اللوحة التي وضعها شاعرنا طلعت على غلافه منذ البداية لتفتح صفحة التاريخ مباشرة على الهم الفلسطيني والجرح الغائر الذي ينزف دماً وفي هذا يقول، منذ البداية في قصيدته "سنة مضت":

أفتح.. في فمي طعم الحكايات التي
لا تنتهي
تتلفت العينان
أغمض.. حقل ألحان يظلِّلُ أضلعي
ويفتح الورد.. انتباه الأمكنة

إلى أن يقول:

خطوات من مرّوا.. ومن أحببت
من أدمنت
تَمتَدُّ الشبابيك.. الوجوه
من أدمنت؟!
أعطيهم إذا شاؤوا دمي

تلك هي الحكاية.. شاعر صفق بجناحيه للوطن وللحبيبة وللجمال وللطبيعة وللَّحنِ وللفضاء فغنى بتغريده ألحان نزيف الوطن وأمسيات اشتهاء رائحة الليمون والبرتقال والبيارات الساحلية المزنرة بسياج الحنين وشقائق النعمان "الحنون" والبرقوق وخطوات الطبيعة التي ترسمها أيادي الصبح الندي على غراس الفجر واحمرار الأفق وفي هذا يقول:

سأمضي إلى بعض روحي قليلاً
ونهر حزين
هنا نهدة البرتقال مساءً
هنا صرخة الأمنيات بكاءً
ستَفْهَمُ أني إذاً عائد من دمي
وتفهم أني إذاً هارب من فمي

حقاً ينزف جرح طلق فيقوله شعراً، ويتأوه حرقة لحضن الوطن فيناديه دفقاً من روحه وعزفاً من وجدانه.

والآن سأدلف إلى ديوانه لأجد فيه "نقوش على جدران العمر" وحكاية قصائد مشرعة بدأت بفضاء، ثم نقوش لربيع يأتي فالإهداءُ، ثم عيدٌ بعيدٍ وفيه يقول:

"يا أم يقتلني الأنينُ"
وفي فمي طعم الصديد
هذا زمان شائك
يقتات من لحمي
ومن عظمي
ومن عمري
تطاردني ابتساماتٌ
فأرسم ظل أفراحٍ..

هكذا هو طلعت سقيرق في حيرةٍ دائمة وقلق وحنين وتوجع وأنين لا يستقر له حال، يبكي وطنه، ويجد نفسه بعيداً عنه، فيعكس هذا الحس، بالألم والمرارة الدائمين رغم أنه يعيش ظروفاً جيدة حياتياً ووظيفياً ولكنه الحنين إلى الوطن وبوح الوجدان بما يحمله هذا البوح، فهو يقول:

ماذا أقول وليس لي إلا النشيد!!
حلقي تيَبَّسَ
قد ذُبحت من الوريد
إلى الوريدْ
عيد بعيد

فالعيد بعيداً عن الوطن هو الحسرة والجرح النازف دائماً، وكيف تكون السعادة مادام الفلسطيني مشرداً ولازال خارج حدود البلاد وإن كان بين إخوته من العرب وأحبائه من المتعاطفين معه والواقفين إلى جانبه في كل مُلمَّاتِهِ وعجز الواقع وطغيان الظلم الآتي من المستعمر والغاصب.

وهكذا سار الديوان، تتتابع فيه القصائد مفعمة بطعم الوجد، فهي سنة مضت، ولنا جدنا، وصديقتي، وقهوة الوجد، وتسكنين الآن صوتي، وصرت في الخميس، ريش الظلام، وانتظار، وتدرين أن البحر لي، شكراً لحبك، جئتك وسقى حقل العمر، وقمر ينام على أريكة عشقه، ومجنونة كل الحروف وأضلعي، البريد الإلكتروني نقوش كنعانية، إهداء، قيثارة الوجد، نقوش وامضة، إهداء، عمري، أغنية، صرخة، مصادرة، تاج الغرام، تعب، الحياة، عَارٍ أنا، المحبة، نبض الكلام، نداء، ضياع، دائرة، كأن خطاي عشق، حدود التمني، صعب.

كما أن للشاعر مساهمات متنوعة في الشعر وفي القصة وفي الرواية والبيبلوغرافيا وفي النقد ثم في النصوص، فالرحلة الأدبية والثقافية حافلة بالإنتاج والكتب والإصدارات فهو يعزف على أكثر من لحن أدبي ولون ثقافي، وقد حدد هويته في هذا، فالشاعر يمكن أن يكون شاعراً وأديباً وناقداً في آن معاً وطالما أن فلسطين المغتصبة لازالت مغتصبة وبعيدة، فالفلسطيني قد تتفجر فيه وعنده شتى

كوامن الإبداع للتعبير عن حبه لها والدفاع عنها والسعي لتحريرها بالقلم كما .هو الحال بالسلاح.

كذلك فالديوان اختلف من حيث تبويبه داخلياً كما اختلف من حيث الغلاف الخارجي فالشاعر يحب هذا، ويسعى للتفرد به، حيث سار في ديوانه منذ القصيدة الأولى "فضاء" وحتى القصيدة الثانية عشرة وهي "انتظار" على شعر التفعيلة الحداثية في نفس النهج والنفس الشعري.

ثم وضع فاصلاً وهو القصيدة التالية "تدرين أن البحر لي" وهي على نظام الخليل العمودي للبحر وبطابع الجدة في الصور الشعرية وببحر خفيف رشيق متناغم ثم عاد في النسق الشعري الأول وهو شعر التفعيلة إلى ما بدأ بقصائد أخرى وهي من "شكراً لحبك" و"خمس قصائد" و"جئتك أسقى حقل العمر" إلى "البريد الالكتروني"

ثم في التنويع الرابع إلى قصيدة مدورة هي "نقوش كنعانية" ففيها الإهداء وفيها قيثارة الوجد ثم تابع في الفصل الخامس من الديوان رحلته الأولى أيضاً وعاد إلى شعر التفعيلة ليختم به ذلك العمل الذي أهداه في كل فصل منه إلى جهة من أهله ومقربيه وقد طعَّمَ الجزء الأخير بالتفعيلة والنص العمودي للبحر فهو يقول في ذلك "نبض الكلام":

إذا قلت شعراً يحن الكلام
وينبض داخل حرفي الهيامُ
أفتح في كل نقطة حبر يماماً
يميلُ إليه اليمامُ
تصير القصائد جنة عشق
ويمتدُّ من كل حسن سلامُ

إذاً تلك القضية في شعر طلعت، تنامي في صيرورة الانفعالات حتى تبلغ الذروة فيتدفق الشعر على سجيته دون توقف معبراً عن حس داخلي جواني هادر بجمل مفعمة بالصور الشعرية والأوزان التي تتلون حسب الدفق الشعري أيضاً وبلغة شفافة وعبارات غنية بالحنين والعشق والمحبة والوجد للأهل والوطن والمحبين.

وفي هذا يقول في "حدود التمني":

أحبك فوق الذي أشتهيه
وفوق الذي في الهوى أرتضيه
تطيب الحياة لأنك قلبي
وأنك نبضي الذي أنت فيه

وإن بقيت لي من كلمة هنا فهي أن التعابير والجمل والتراكيب والصور تترادف إثر بعضها كما اللغة التي يكتب بها طلعت سقيرق فهو يتعامل مع اللون الشعري حسب الحالة ويكتب في أيها ودون تحيز لأي منها وذاك هو الجمال.




من أجلِ عينيكِ..

شعر: محمد الزينو السلوم

قـد عيـل صـبري، وكـاد البحـر يغـرقني
والهجـر طـال، ونـار الهجـر تحـرقني
يـا مـن يكحّـل عـيني - السـهد أرقهـا -
بنظـرةٍ، إنهـا باتـت تـؤرّقني
فـالهجر طـال ولا ذنبـاً أتيـتُ وقـد
تمـرّد البحـر حتـى كـاد يغـرقني
سـأمخر البحـر مهمـا كـان مـن خطـرٍ
مـن أجـل عينيـك أرضـاه يطـوقني
مـن أجـل عينيـك أشـعاري ألوّنهـا
وأرسـم السـحر علّ السـحر يغـدقني
مـن أجـل عينيـك أشـعاري أموسـقها
لا فـرق حتـى وإن راحـت تموسـقني
إن أعشـق البحـر مـن عينيـك زرقتـه
ألوانـه في ليـالي الصـمت تُـنطقني
أشـدو هـزاراً وصـوتي كـاد يخـنقني
فـالحزن أسـرقه يومـاً ويسـرقني







يـــا فتنـــة الـــروح أحـــلامٌ تراودنـــي
فأركـــب البحـــر والأمـــواج تـــرمقني
أصـــارع المـــوج لا أخشـــى تقلبـــه
قـــد كنـــت أســـبقه يومـــاً ويســـبقني
بـــرقٌ ورعـــدٌ وأمطـــارٌ تفـــاجئني
أقـــول: ذا الـــبرق إمّـــا عـــاد يصـــعقني
أمضـــي وينقـــذني الـــرحمن مـــن غـــرقٍ
وأنـــزل الـــبرّ، آمنـــه، فيصـــدقني
يقـــول صـــبراً علـــى الأيـــام يـــا ولـــدي
وأشـــرب الصـــبر، بالآهـــات يرْشـــقني
قـــد عيـــل صـــبري ومـــا أنســـت منـــك لقـــا
لعـــلّ صـــبري بُعَيْـــدَ الهجـــرِ يـــرزقني
أنثـــى أكحّـــل أجفـــاني برؤيتهـــا
عيونهـــا مـــن بحـــار الشـــوق تســـرقني
مـــن دون حـــبٍّ وعشـــقٍ لا أحـــسّ بهـــا
كأنّهـــا دونمـــا الأشـــعارُ تقلقـــني
فكـــم تأملـــتُ في دنيـــاي أقرأهـــا
في آخـــر الأمـــر أنســـاه لتعـــتقني







في نفحـــة الشـــعر تغريـــداً تـــؤرقني
إلى المحبـــة مثـــل الســـهم تُطلقـــني
أحـــسّ في روحهـــا أنثـــى تغـــازلني
وإن ســـكتُّ بلحـــظ العـــين تـــرمقني
أغفـــو علـــى الحلـــم أشـــواقي تلوّنـــه
وترســـم الســـحر حيـــث الســـحر يســـرقني
أصـــحوا وأســـأل عنـــه، لا أرى حلمـــاً
كأنّمـــا الصـــحو يـــا ســـمراء يخـــنقني
فلقـــت فيهـــا النـــوى فارتـــدّ خافقهـــا
وعـــاد فيهـــا النـــوى كالظـــلّ يلْحقـــني
لكـــم عشـــقت مـــن النجـــوى فمـــا عشـــقتْ
وحـــين لـــذت بصـــمت الليـــل تعشـــقني
كيـــف الولـــوج إلى الأعمـــاق أســـألكم؟
وقـــد تســـابقتِ الآفـــاق تـــرهقني
قـــد عيـــل صـــبري وطـــال الهجـــر أرّقـــني
قـــد عيـــل صـــبري وكـــاد البحـــر يغـــرقني




هل المسرح صراع الأضداد..؟!

أم هو مرآة الأضداد..؟!

بقلم:

محمد سعيد مُلاّ سعيد

هناك مقولات عدة عن مقومات المسرح، ولكن يبقى الصراع أهم مقوماته التي تتجسد من خلاله الأفعال ورداتها، كأن الصراع وهو الشد والجذب بين البشر ليظهر السمو الإنساني المتمثل بالخير وقيم العدل والفضيلة.. تزامناً مع الفن والجمال، التي تبهي حياتنا وتجمل في مفاهيمنا لمعنى الحياة خاصة وللعالمين عامة..

حقيقة، صراع الأضداد هو صراع بين الخير والشر، أي بين الصح والخطأ، وهما في جزئيهما فعل إنساني لابد منه، وتبقى القيم التي تفصل بينهما، ويشخص بناءً عليه هذا شر وهذا خير.. فليس هناك شر بالمطلق ولا خير بالمطلق، إنما الكل نسبي وقابل لتبادل الأدوار، فمثلاً لو إن أمراً ما يبدو عادياً في مرحلة قد تأتي مرحلة تلغيه، فقد يكون أمراً مرة مسموحاً به ومستحباً ويحض العمل به، ومرة أخرى يكون ممنوعاً وغير مرغوب فيه، أي إن هناك دافعين لفعل واحد أحدهما يجر شرقاً والآخر يخالفه ويجر غرباً، وهما يخلقان ضرباً من السلوك متعارضين في الأهداف، أو أن يكون الصراع بين رغبتين ووسيلتين للوصول إلى هدف مراد.. ويبقى السؤال ملحاً أيهما الأصح.. وما الذي يربط ما بينهما وما الذي يفرق، ويبقى أيضاً العرف والقيم والنظم التي يحدد هويتهما، ويكون ذلك بيد الأقوى قوة ومنطقاً وظرفاً.. إلخ.

قد يُحدد الصراع سلفاً وجهة محددة بُنيت سابقاً، وأي خطوة لتجاوزه أو تبديله أو تعديله يؤدي إلى رد فعل معاكس.. كأن كان الأمر الأول خير والآخر لأنه يتجاوزه ويخطوه فهو شر.. وهكذا.

وقد قال أرسطو: بأن الفن محاكاة للواقع، لذا كان المسرح (بالطبع بعد وجوب الشخوص إضافة إلى المكان) تجسيد واعٍ بين هذه الصراعات وبين تنيك الأهداف، ليظهر مدى صحة المقولة الأولى ويظهر مدى سوء الأخرى على أقرب وجه وصورة.. ولسيادية نمطية معينة يرضى بها المجتمع المبني من الأعراف المدنية والتعاليم الدينية والنظم السياسية.. لسوية التعايش الاجتماعي وعقده حين يضع بعضاً من إشكاله تحت عدسة مجهرية لزيادة الحجم الظاهر للأشياء الصغيرة وتضخيمها.. فمثلاً لو إن فعلاً أو سلوكاً يبدو عادياً وطبيعياً سيما لو وضع تحت مجهر تأملي - كُبر وضُخم - لبدا فيه واضحاً الإساءة والخلل لسير المجتمع.

إلاّ أنّ المسرح يرتكز إلى حركة صراع وتضاد بين الرؤى والمشارب في النص يؤدي إلى سيادة أحداهما على الأخرى، ومن المفترض أن تكون مقبولة من المجتمع بما فيه أهلوه لتكون كعبرة أو موعظة أو لها هدف معلن، أي أن يكون المسرح مدرسة للمجتمع أو أن يكون مرآة له تظهر له عيوبه ومحاسنه، يروج لمفاهيم أصلية ويستقبح أخرى، ولكن - في الآونة الأخيرة نسبة إلى عمر المسرح - في بداية القرن العشرين وبعد الحرب العالمية الأولى بالذات تغيرت المفاهيم الجمالية والفنية والأدبية، وقد نال المسرح حظاً كبيراً منه، بعد أن أدى دوره التربوي التوجيهي المدرسي أكان ملهاة أو مأساة، دينياً كان أم أخلاقياً أو تسلية إلخ.. على أنه تجديد وكسر لكلاسيكية جامدة، بعدما أخذ الناس يملون النصائح والمواعظ الخلقية، وباتوا يطلبون معالجة مشكلات الحياة ورؤية شخصيات مألوفة، ليملؤوا الفراغ للتسلية وإدخال المسرة على القلوب.

ليس لدي تعريف كامل وشامل عن توجهات المسرح ولست بصدد ذكرها كلها، فالمسرح مسرح مهما قيل عنه ومهما قيل فيه، يبقى بمكانه المعلوم وبشخوصه (أكانوا مقنعين بالماسك أم كانوا صامتين من ذوي البانتونيم) حقيقة ساطعة يمثل الإنسان بصراعه، بمواعظه، بمحاكاته، بعبثيته.. يمثل حياته بكل جوانبها النيرة أو المعتمة.

كان هذا فيما مضى وسيبقى.. الصراع أحد أهم عوامل تفاعل المسرح قوة وإبداعاً، ولكن ماذا نقول عن المسرح الذي استجد ومن رواده بيكيت في رائعته (في انتظار غودو)، وسارتر في الجحيم هم الآخران (الأبواب المقفلة) وجان جانيه، ويونسكو.. ناهيك عن مسرحيات تشيخوف الرتيبة الفضفاضة بمونولوجاتها.. إلخ.

ثمة فكرة غائمة عن ضرورة وجود شخصيات ولكن أي شخصيات نريد، ماضية أم حاضرة أم مستقبلية لم تولد بعد، تعيش حياتها على أنها الشخصيات الراهنة.. ثمة فكرة غائمة عن ضرورة وجود نص ولكن أي نص نريد، ثمة فكرة غائمة عن ضرورة وجود هدف ومغزى ولكن أي هدف ومغزى نريد، فالمسرح في الراهن هو المطلق الذي يمثل الإنسان ونوازعه وتطلعاته وحياته على سجيتها.. فلماذا لا نعيش الحياة على المسرح بشكل تعبيري رمزي عن الانفعالات الداخلية والميول اللاواعية بين صرامة العقلانية وبدائية اللاوعي..؟

فهل يمثل المسرح صراع الأضداد أم هو مرآة الأضداد كصراع قيمي أو كصراع وجودي؟

المسرح سيبقى مسرحاً وإن اختل واحد من عناصره وهو النص، والصراع المضموم لابد أن يظهر لأي مسرح مهما كان، على أن يكون له شخصيات تمثله وتحاكيه، ويكون له مكان معلوم تجري على خشبته الأدوار، بذكر سيرة الإبطال وحكايات الأسطورة أو بشخصيات معاصرة تجتر همومها وآلامها، فمن المسرح اليوناني المقام لتمجيد الآلهة على شرف ديونيسوس إلى مسرح المأساة على يد أعاظم من أرسوا دعائمه اسخيلوس ويوروبيدس وسوفوكليس والملهاة على يد أرسطو فإن مما أضافوه من تنوع المواضيع الأخلاقية، بني على الصراع بكل ألق، إلى أن تدرج إلى ما وصل إليه عبر مسيرته الطويلة التي تنوعت الألحان التي تعزف بها ألوانها فقفز عنه الصراع كما في المسرح الملتزم والملحمي إلى المسرح التعبيري والرمزي، إلى مسرح العبثي والسريالي إلخ وما من شاكلتهم.

أما النص (الصراع والمحاكاة) فهي متحركة قابلة للتشكل لأنه تتبع الإنسان وتنبع منه، فكم من مرة تغيرت رؤاها وتبدلت مفاهيمها وتلون جلدها، من موعظة دينية إلى احتفالية مقدسة تمثل تمجيد سيرة الأبطال والأسطورة.. إلى تمثل الأخلاق والطباع السوية كمنظومة اجتماعية. فليس من فعاليات سوية الآن إلاّ ويبقى المسرح مسرحاً الذي يعد أبو الفنون التعبيرية. يقول عن تناقضات اجتماعية محدثة بفعل العلم والتقدم التقني والاختراعات التي غيرت الوسائل فغيرت النتائج والتآويل.

قد يمثل الصراع في المسرح الذروة ولكن لماذا يكون هذا الصراع حتمياً، فالكثير من التجارب التي تمثل القيم أو المعضلات الأخرى شهدها المسرح بطرق ومعالجات فنية أخرى ولم يهتز منه شعرة، فالقوالب الجامدة قد كسرت، لا بل تألق بتلك الصورة وهو يحمل شخصيته بأن يعرض ما يخصه ويقدم نماذج تمثل دوره، وقد خاض لأج ذلك دروباً خصبة بألوان زاهية بالاتجاهات العديدة التي تسخف مقولة هدف الفن وموعظته، لأنه بعيد عن النفعية وقد تخطت البشرية مرحلة مهمة في صيرورتها بعد تلاقح الثقافات وتلغي حدودها.

أما عن ماهية الصراعات – وهي مجموعة القيم والضوابط التي تسيّر سلوك الفرد ضمن المجتمع – التي تضبط وعيه وضميره بعد تصادمهما، على الرغم من أنها تبدو عدوانية في مجملها وتمثل الرغبات الجنسية اللاواعية كما قال فرويد، والتملك والأنا، إلاَّ أنها تشذب فيه الأوار بوعي بما يدور حوله وما لها من قيود اجتماعية، وبما ينسجم ويتجانس مع ما بداخله كمنظومة الضمير المتواجدة أصلاً بدواخله، ينشأ الصراع في ذات الفرد من تضاد رغباته مع الآخرين مع المجتمع وبما هو عليه، ومجموعة ضوابطها التي تحجم رغباته لتصهرها في رغبات المجموع، وهي متمثلة في الحضارة والقيم.. المرء يسعى إلى إشباع رغباته اللاواعية، فهو عدواني لنيلها، حب التملك والأنا لاستمرار وجوده، وهو غريزي حيواني لبقاء نسله لاستمرار بقائه من بعده.

فالصراع قد يحتدم ويأخذ منحيين أولهما منحى قيمي تؤديها شخصيات متفاعلة، والأخرى تعتمد على مواقف وجودية.. يسعيان

إلى سيادة أحد الطرفين وينتصر جانبه.. لأن الصراع يدور بين الإرادات.. فالمسرح فن متحيل لا يكترث بنقل كل الوقائع، بل يهتم بالصراعات المقبولة والناشزة على السواء، (أي الفعل وضده) لأن الصراع محور عن فكرة يتم ترسيخها أو واقع يقبله نهجها، ويمكن التلميح إلى الزمان والمكان والأشخاص بذات الأبعاد النفسية ورؤاها الفلسفية.

هنا يستجد دور المسرح التعبيري الذي يعتمد بدوره حصراً على الأفكار كقيم وعلى الشخصيات كنماذج، فالدور المعرفي التوجيهي يعد شكلاً من أوجه الوعي الاجتماعي ويتمثل دوره الذاتي الآني، كما ويأتي دوره في صياغة منظومة اجتماعية أخلاقية، لضبط نوازع الفرد الصارخة، علاجاً كان أم تفريغاً.. في المحورين – الذاتي والآخر – مما يؤدي إلى انسجام واحد.. كتهذيب بوعي ومسؤولية إدراك العالم والآخر والأنا.

بالتأكيد للمسرح رسالة ولكن أي رسالة هي مقبولة بعد كل التجارب التي مرت عليه، كان المسرح في بدايته طريقة لعبادة الآلهة والظواهر الطبيعية المبهمة وكان يمثل طقساً دينياً يقام في الهواء الطلق في مسيرة يوم كامل وقد حدَّده أرسطو بالمتلازمات الثلاث: المكان الواحد والزمان الواحد والموضوع الواحد، العناصر الثلاثة دون فصول ومشاهد، يؤديه شخص أو أكثر مع ترديد الجوقة التي ترتل الحدث الكبير الجاري الآن في الماضي.

ولكن التركيز الآن على وجوب صراع مفرقع ليس مهماً جداً بالقياس.. بعدما كل المراحل التي مر بها المسرح عموماً والنص خصوصاً، بقدر وجوب وجود المسرح كخشبة تقدم عليها الإنسان بكل طباعه وأخلاقه وميوله. وعبثيته. خلافاً لمرحلة الكلاسيكية القديمة منها والحديثة راهناً التي قدمت الإنسان كحقل تجارب للكيماويين..فبعد تسارع انتشار الأفكار والقيم وتلاقح الثقافات وإلغاء الأسوار تعمقت التضادات وتشوشت الرؤى تحت تأثير التقدم العلمي والتقني وبلوغ العالم إلى قرية صغيرة. التي قالت بنفي الحضارات وإلغاء الحدود.. وإعادة النظر في القيم. وتدعو إلى إنشاء مجتمع كوني واحد ابتداءً من عودة المرء إلى ذاته ووعيه.. لأنه لم يعد من شيء ثابت فقد عصفت الريح بكل شيء.

ومقولة المسرح شخصيات تتصارع وأفكار تتبارى وإرادات تتكسر، من أقانيم النص.. ولكن دخلت عليها تعديلات جذرية من حيث عدم الوصول إلى الذروة وإنها مجرد صور لا تربطها فكرة عامة، فحين قدّم بيكيت مسرحيته المشهورة (في إنتظار غودو) لم يكن هناك بتاتاً أي صراع والذي لم يبنَ على أي مدخل، لا قيمي ولا صراع مادي وجودي، إنما كان كل الأمر انتظار شخصين لرفيق ما يأتي أم لا، تؤول فيما بعد اشتقاقاً من اسم الشخصية غودو، إنه انتظار الله، ومتى كان الفرد بانتظار هكذا، وسارتر في مسرحية (الأبواب المقفلة) عرض أشخاصاً يدورون في حلقة مفرغة بحيث لا يطيقون تحمل وجود بعضهم حتى أحسوا بأن الجحيم هو الآخر، امرأة تهوى رجلاً، وامرأة تهوى امرأة، ورجلاً يكره الإثنين، وتكون الجملة الأخيرة: حسناً فلنتابع.



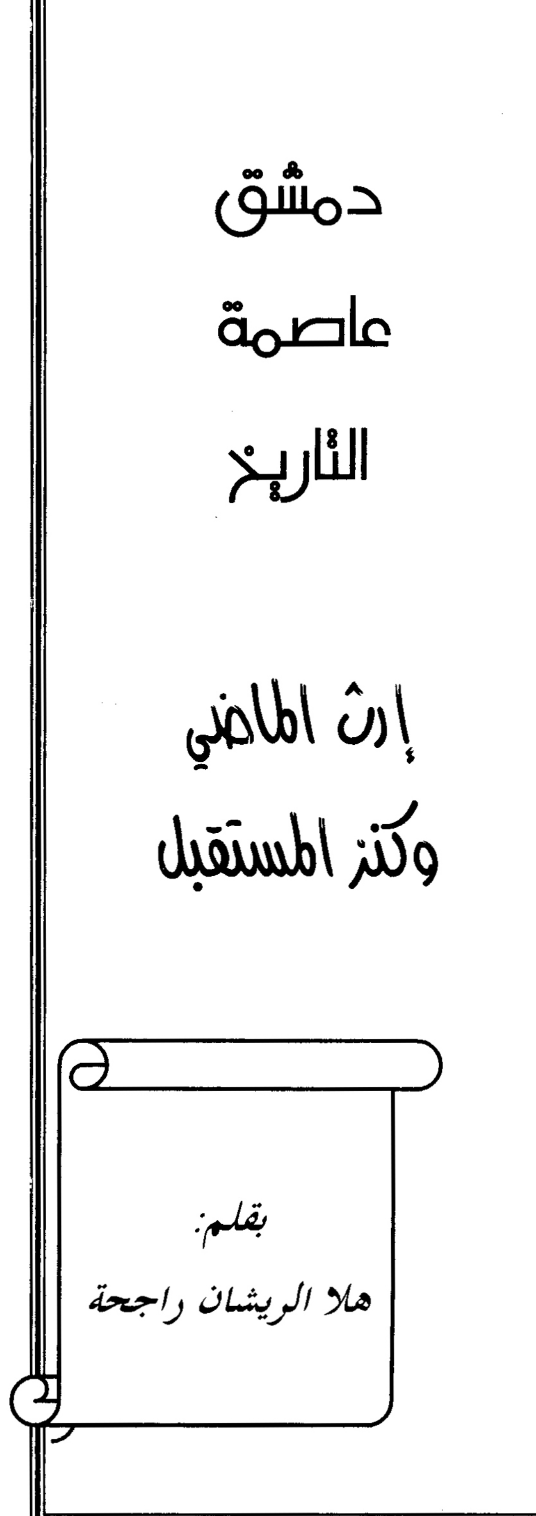

فارس الروح..

شعر: خالد سرحان الفهد

رسالة إلى أبي النواس

دارتْ.. وإنْ حَضَـرَتْ أَحَقَّتْ
طيبـاً، ومـا كـابَرْتَ أَبْقَتْ
فعـلَ الكـريمِ مـع الكـريم..
لثمتُهـا ورقفـتُ، رقَّـتْ
رَقَّـبتْ لـو اخـترقَ النسـيمُ
الجـانبين لَمـا تَوَقَّـتْ
وَصَـفَتْ صـفاء الـروح أو
مـن كـلِّ شـائبةٍ تنقَّـتْ
حَسُـنَتْ إلى حَـدِّ الشـقاءِ
وجـادت النُّعمـى فأشـقتْ
قُـبَلاً تسـاقينا ومـا مـن
واقـعِ سُـقِيَتْ وأسـقتْ
وتفـوقني شِـعراً فكانـت
كلمـا ألقيـتُ.. ألقـتْ
ومعـي فتصـنَعُ مـا صـنعْتُ
شـققتُ وجـهَ الغيـبِ شَـقَّتْ
وخَلَعْـتُ عـني مـا خَلَعْـتُ
وسـاعةُ السـاعاتِ دَقَّـتْ
حتـى جُنِنْـتُ بهـا ومـا
مـن واقـعِ العقـلاءِ أَمْقَتْ



هل أبالغ إذا قلت إنك يا دمشق عاصمة التاريخ، وأنت والتاريخ توأمان ولدتما معاً وسرتما معاً. ووجهك الريان النضر يزداد شباباً وجمالاً في كل حقبة زمنية.

فمنذ ما قبل التاريخ المكتوب، أي ما يزيد عن تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، وأنت أرضاً تقدم العطاء لحضارات عديدة توالت عليك يصعب عدها أو حصرها. وأنت البطن الذي حبل وأنجب المدنية والحضارة، لتغدي أقدم عاصمة مأهولة في العالم. وعلى أرضك الخصبة أسس الزعيم الآرامي (ريزون) مملكته في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

فأنت أرض الأساطير القديمة، وعلى أرضك اتحدت آلهة الخصب والحب (عناة) مع إله المطر والسحاب (بعلٍ)، فارتوت فيحاؤك وفاضت جنانك خيراً وثمراً.

ألست أنت من أطلق عليها الآراميون اسم (مشق) وكانت دال النسبة تسبق اللفظ لتصبح (دَمَشق) أي الأرض المزهرة والحديقة الغناء.. والسريان ألم يسموك (درمسوق) أي الدار المسقية. أما الرومان فهل قللوا من شأنك عندما أسموك (دومسكوس) أي المسك المضاعف.

وَأيضاً وأيضاً توالت عليك الأسماء على مر العصور، فأنت (جلق) وأنت (الشمس) وأنت (الفيحاء) أي الرياض والجنان الواسعة. فإذا كان التاريخ قد عجز عن التغزل بك، ووصفك بكلمة واحدة، فكيف بالأحرى لي أنا العاشقة التي أضاعت أمام سحرك وبهاؤك الأحرف والكلمات.

فيا عبق التاريخ في أوانٍ لازوردية، ويا مزيجاً ونسيجاً فريداً من حضارات وأمم توالت تباعاً على مر الزمن، وشكلت تراكماً وتداخلاً ثقافياً وهندسياً معمارياً نادراً إذا لم يكن مستحيلاً أن نجد مثله في العالم أجمع....

أفلست أنت الجوهرة النادرة التي تطمع النفوس لسرقتها على مر الأزمنة؟ والشجرة المثمرة التي يحاولون رشقها بالحجارة.

فإذا صمت التاريخ فإن قلاعك وأبوابك الشامخة والصامدة ما تزال تحكي قصة الصمود

والشموخ والإباء، ومازالت شاهدة على شعب أبي رفض الذل والخنوع منذ آلاف السنين وحتى اليوم.

وأبوابك هذه الموصدة في وجه الغزاة والمعتدين، هي نفسها الأبواب المفتوحة والمرحبة بكل أخ وصديق ضاقت عليه أرضه، أو جار عليه زمانه، فارتمى بفيحائك وكنت له خير منزل وخير دار.

فموقعك الجغرافي المميز كنقطة عبور للقوافل التجارية جعلك مهداً لأقوى وأهم الحضارات، فكنت موطناً للآراميين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وبعدها توارث حكمك الآشوريين والكلدانيين إلى أن ظهر الأنباط العرب وجعلوك عاصمتهم. كما بقيت لأكثر من عشرة قرون مركزاً ثقافياً هاماً في زمن الحضارة اليونانية، حيث امتزجت الثقافة اليونانية مع حضارة الشرق وثقافته.

ولا يخفى على أحد الازدهار الذي شمل كافة جوانب الحياة، عندما دخلتك الجيوش العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي، فأصبحت بذلك حاضرة الأمة وعاصمة الأمويين. وامتدت مساحة العمران فيك وعلت القصور والصروح الثقافية وارتفعت الجوامع وأهمها الجامع الأموي الذي شيد في عهد الوليد بن عبد الملك ليكون واحداً من أجمل الصروح العربية الإسلامية في العالم.

إضافة إلى الحمامات والأسواق الشعبية، والتي تم ترميمها وإعادة إحيائها في زمن الدولة العثمانية، وأهمها الجامع والتكية السليمانية، وسوق البزورية وسوق الحميدية، والبيوت القديمة التي تعتبر من أجمل الأبنية التي تميزك كقصر العظم وغيره من البيوت المعطرة بالبنفسج والنارنج والياسمين الذي يفيض برائحته إلى ما خلف الجدران، شأنه شأن أهل الشام بجودهم وكرمهم.

وإذا ما مر زائر أو عابر سبيل في حاراتك العتيقة عتق الدهر، تتراءى له كنيسة بولس وحنانيا شامخة تعيده إلى زمن المسيحيين الأوائل، وعلى مسافة خطوات قليلة لا بد له أن ينحني أمام عظمة وبهاء الجامع الأموي الذي يأخذنا إلى زمن البطولات والانتصارات الإسلامية حتى ليظن نفسه واحداً من بني أمية، وإذا ما أمعن النظر في صلاح الدين ممتطياً صهوة جواده، لامتلأت روحه نشوة الأمجاد الخالدة.

فكأن المقدسات اجتمعت وتعانقت بسلام وإيمان كبير، يسمو بدمشق إلى وجه الحضارة الأمثل، فتآخي أبناؤها وتماسكهم هو النسيج القوي الذي تغفو عليه دمشق بهناء ورخاء، ومتانة هذا النسيج هو ما يمنعها من الانحدار والسقوط في هوة الجهل والظلام.

واليوم نراك تنهضين وتتجملين بوجه أكثر شباباً وتجدداً وحداثة، فصفة التجدد الدائم، هي سر من أسرار جمالك وبقاؤك، حيث يمتزج وجه المستقبل مع رائحة التاريخ. وتشرقين كامرأة بثياب عصرية، تتعطر برائحة الأصالة العربية.

ولا عجب في أن تكوني عاصمة الثقافة العربية الإسلامية لعام (٢٠٠٨).

فسلام عليك يا بنت سوريا البكر، ويا شام الدنيا، ولتستمري حضارة ونهضة، ولتزدهري خصباً وعمراناً على مر الزمان.

وليعذرني التاريخ إذا كنت قد أهملت وتناسيت الحقب والأيام السوداء التي مررت بها، بينما تغنيت وأثنيت على أيامك المشرقة والمزهرة، ليس تلاعباً بالحقائق ولا بعداً عن المصداقية، بل لأني أحب أن أراك هكذا شامخة وعزيزة، قوية ومنتصرة، جميلة وعامرة على مر الزمان.أليس هذا ما يفعله الشاعر العاشق..

ويبقى أملي وأمل كل من أحب دمشق، أن نبقي عليك يا شآمنا مصونة ومكرمة، وأن ننهض بك بكل ما أوتينا من قوة لتبقي كما كنت في أفضل أيامك، فنصون الأمانة والجوهرة التي ورثناها عن أجدادنا، لنسلمها للأجيال القادمة بأفضل حلة وأجمل وجه، لعل التاريخ يذكرنا كأيام مشرقة وذهبية في تاريخ دمشق ومستقبلها.